المجلس الإسلامي السوري

SURİYE İSLAM KONSEYİ | SYRIAN ISLAMIC COUNCIL

مقاربات

مجلة فصلية

أبحاث ومقالات في الشريعة والفكر والحضارة

- التدرج سنة قدرية وحكمة تشريعية
- مقاصد عبادة الصوم
- وثيقة الهوية السورية والعلاقة بالآخر
- فلسفة الإسلام في الصراحة
- جهود الشيخ محمد علي الصابوني في التفسير
- ربيع التغيير في العمل الحركي الإسلامي

العدد العاشر - رمضان 1442 هـ / أيار 2021 م

الفهرس

فقه الاختلاف ـ د. عبد العزيز محمد الخلف ٢

التدرج سنةٌ قدريةٌ وحكمةٌ تشريعيةٌ ـ د. محمد معاذ مصطفى الخن ٤

فلسفة الإسلام في الصراحة ـ أ. د. حسن الخطاف ٢١

الضرب في آية القوامة.. آراء ومواقف ـ د. سعاد اشوخي ٣٢

مقاصد عبادة الصوم ـ د. مجدي قويدر ٤٢

العلاقات الاجتماعية في الإسلام ـ الباحث: عامر خطاب ٤٩

الخَلفُ الأَخيَار.. ومنهجُ التَّربيةِ بتقويمِ المَسَار ـ د. عماد كنعان ٥٩

وثيقة الهوية السوريّة والعلاقة مع الآخر في ضوء الثقافة الإسلاميّة ـ د. محمد أيمن الجمال ٦٧

العلاقة بالآخر ـ د. عبد الكريم بكار ٧٣

ربيع التغيير في العمل الحركي الإسلامي ـ الأستاذ نبيل شبيب ٧٦

جهود العلامة الشيخ محمد علي الصابوني في علم التفسير ـ الباحث: طارق طه مكرم الله ٨١

أسماء الله الحسنى وأثرها في حياة الفرد وإصلاح ونهضة الأمة ـ الشيخ عبد العظيم عرنوس ٨٩

الإيمان بالغيب.. كيف يكون؟ ـ محمد علي النجار ٩٦

كلمة رئيس التحرير

فقه الاختلاف

د. عبد العزيز محمد الخلف

الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة وأكمل التسليم، على سيدنا محمد، المبعوث رحمة للعالمين، وعلى آله وصحبه وسلم أجمعين، أما بعد:

فيكثر حديث الناس في شهر رمضان المبارك عن بعض القضايا الخلافية التي للعلماء فيها أكثر من وجهة نظر، كتحديد بداية الشهر واختلاف المسلمين حوله، فتصوم دولة في يوم وأخرى في يوم تالٍ، وربما صامت ثالثة في يوم ثالث، وتحديد صدقة الفطر أهي من الأعيان أم الأثمان، وهل على من فرَّقها من الأثمان بأسٌ، أم أنها صدقة متقبَّلة، ثم يبدأ التقريع واللوم وجلد الذات، وتكثر الآراء التي تطالب بالاتفاق على هذه القضايا الفقهية، وأن الاختلاف فيها اختلافٌ غير محمود، حتى ليخيل للسامع أن اتفاق المسلمين عليها غاية المنى ونهاية المطلب، وأن أقطار المسلمين ستتوحد، وجبهتهم ستقوى بعد هذا الاتفاق الموهوم.

والحقيقة أن اختلاف المسلمين في تحديد يوم الصوم وتحديد ماهية صدقة الفطر اختلافٌ سائغٌ مشروعٌ، وليس فيه ما يغُضُّ من شأن المسلمين أو يُنْقِص من قدرهم، ما داموا ينطلقون في اختلافهم من فقهٍ ودليلٍ، وكل منهم يبغي الحق ويتحراه، بل إنهم في اختلافهم مأجورون جميعًا، على تفاوت في الأجر، فللمصيب أجران وللمخطئ أجرٌ واحدٌ، يقول النبي ﷺ: «إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران، وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجرٌ»(١)، وهذا الحديث توجيه نبوي عظيم يؤسس لثقافة قبول الرأي المخالِف.

ولا يُفهم من هذا أن سعيَ المسلمين للوصول إلى اتفاقٍ في كثير من المسائل الخلافية مذمومٌ، بل هو أمر محمودٌ لا مرية في ذلك، وبذل الجهد في سبيل تحقيقه لازمٌ، على ألا نقرِّع أنفسنا ونجلد ذواتنا إذا اختلفنا في أمرٍ فرعيٍّ، لأن الاختلاف سيستمر ما دامت العقول متفاوتةً والفهوم مختلفةً. فلا بد من التأسيس لثقافة قبول المخالِف.

ليست المشكلة في أن نختلف، وإنما المشكلة في أن يفضيَ هذا الاختلاف إلى التنازع فالتخاصم وربما الاقتتال، هذا ما لا ينبغي أن يصير إليه حال المسلمين بأي شكلٍ من الأشكال، يقول الله تعالى: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ﴾ [الأنفال: ٤٦]، ولو شاء الله لجعل الناس جميعًا يسيرون في الطريق ذاته، ويتبعون الرأي ذاته، ولكن الله شاء أن يجعل للناس عقولًا، ويعطيهم حرية الاختيار،

(١) البخاري، في الاعتصام، باب أجر الحاكم إذا اجتهد، حديث رقم (٦٩١٩).

ليحاسبهم بعد ذلك على اختياراتهم، يقول سبحانه: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [هود: ١١٨ ـ ١١٩]، فالاختلاف سنة إلهية أقام سبحانه وتعالى الكون والخلق عليها.

ومن الاختلاف ما هو اختلافُ رحمةٍ، لما يجلب للناس من تيسير، ولو فرضنا أن آيات الكتاب الحكيم جاءت تحمل معنىً واحدا لا يختلف فيه الناس، وجاءت الأحاديث جازمةً لا تقبل تأويلًا أو اختلافًا؛ لأورث ذلك المشقة والعنت على الناس جميعًا، بل ربما جعل هذه الأحكام غير صالحةٍ لكل زمانٍ ومكانٍ، ولذلك شاء ربنا سبحانه أن يكون كثير من كلامه حمّال أوجه، ليختار المجتهد ما يراه حقًا، ويختار غيره منه ما يراه حقًا. وحينما يختلفون ينشأ عن اختلافهم اليسر لمن يتبعهم، فيكون اختلافهم رحمة، يقول أحد التابعين: (كان اختلاف أصحاب رسول الله ﷺ رحمة لهؤلاء الناس)[١]، ولهذا اجتهد الصحابة واختلفوا في أمور جزئية كثيرة، ولم يضيقوا ذرعًا بذلك، بل نجد الخليفة الراشد عمر ابن عبد العزيز رحمه الله تعالى يقول عن اختلاف الصحابة رضي الله عنهم: (ما أحب أن أصحاب رسول الله لم يختلفوا؛ لأنه لو كان قولًا واحدًا كان الناس في ضيق، وإنما أئمة يقتدى بهم، فلو أخذ أحدٌ بقول رجلٍ منهم كان في سعة)[٢]، فالصحابة باختلافهم أتاحوا لنا فرصة الاختيار من أقوالهم واجتهاداتهم، كما أنهم سنُّوا لنا سنة الاختلاف في القضايا الاجتهادية، مع الحفاظ على رابط الأخوة والمحبة.

فالاختلاف وحده ليس مشكلةً، إنما المشكلة ألّا نحدِّد مرجعيةً لحل الاختلاف إذا وقع، تلك المرجعية التي نصَّ عليها ربنا سبحانه بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩]، فذاك المرجع لحل كلّ خلافٍ، إن التجأنا إليه وُقينا شر الاختلاف، وإن تركناه أصابنا الزلل والضلال، فعدم تحديد مرجعية حل الاختلاف هي المشكلة المعضلة.

وهنا لا بد من أن نذكر بالقاعدة الجليلة التي تؤسس لقبول الاختلاف، تلك القاعدة القائلة: (الاختلاف لا يفسد للود قضيةً)، والقاعدة الذهبية في ذلك: (نتعاون فيما اتفقنا عليه، ويعذر بعضنا بعضًا فيما اختلفنا فيه)، ولنا في الإمام الشافعي خير قدوةٍ، يقول يونس الصدفي: ما رأيت أعقل من الشافعي، ناظرته يومًا في مسألة، ثم افترقنا ولقيني فأخذ بيدي، ثم قال: (يا أبا موسى ألا يستقيم أن نكون إخوانًا وإنْ لم نتفق في مسألة)[٣]. رحمه الله تعالى، ما أجمل كلمته هذه من كلمةٍ تُرسي دعائم إدارة الاختلاف، ولا تحاول استئصاله من جذوره، لأنها محاولةٌ غير مجديةٍ.

نسأل الله تعالى أن يلهمنا حسن الاختلاف، وحسن إدارته، وأن يسدد إلى الحق خطانا، ويجنبنا الزلل والضلال. والحمد لله رب العالمين.

(١) حلية الأولياء: ١١٩/٧.

(٢) جامع بيان العلم وفضله، لابن عبد البر: ٩٠١/٢.

(٣) سير أعلام النبلاء: ١٦/١٠.

التدرج سنةٌ قدريةٌ وحكمةٌ تشريعيةٌ

د. محمد معاذ مصطفى الخن ـ رئيس مجلس الإفتاء السوري

الحمد لله رب العالمين وأفضل ا لصلاة وأتم التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد: فقد أرسل الله رسله رحمة بعباده وتفضلًا عليهم، وبمقتضى رحمة الله بعباده تدرج مع الخلق فيما يفرض عليهم من تكاليف أو أوامر ونواهي، لتكون شرائع الله أيسر على الإنسان الذي آمن بالله واستسلم له وعقد العزم على طاعته، وهذا التدرج إن وقع في الشرائع كلها وخاتمتها الإسلام، فإنه لم يقع في العقيدة، لأن العقيدة الإيمانية واحدة ثابتة لا تتغير، ولا تقبل وجود أوجه أو مراحل لها.

وكما وقع التدرج في التشريع فقد وقع التدرج في الخلق، فالله القادر على أن يخلق كل شيء بقوله (كن) لم يخلق الكون دفعة واحدة، وكذلك لم يخلق الإنسان والحيوان وسائر الموجودات في لحظة، وإنما وضع للخلق سنن تقديرية تقتضي تدرج وجود المخلوقات، وكذلك أقدار الله فإنها تأتي تدريجيًا على الفرد أو المجتمع وفق سنن ربانية محكمة.

وهذا بحث في بيان هذه السنة الربانية، يتضمن ١ـ تعريفًا بالتدرج ووجوهه، ٢ـ وعرضًا للتدرج كونه سنة قدرية وكونه حكمة تشريعية، ٣ـ وبيان وقوعه في شريعة الإسلام، ٤ـ ثم حديثًا مفصلًا عن حكم التدرج في تطبيق الشريعة. ٥ـ وبيان المبادئ والقواعد التي تحكم عملية التدرج في التطبيق.

ما التدرج؟

أولًا ـ التدرج لغة واصطلاحا:

لغة: التنقل الارتقائي في الدرجات صعودًا درجة فدرجة[1]. **واصطلاحًا**: تجزئة العمل المادي المعنوي إلى أجزاء متعددة تتناسب مع الغاية والاستطاعة. وعلى هذا فإن التدرج يتناول:

١ـ كل عمل مادي أو معنوي قابل للتجزئة.

٢ـ والتدرج قد يكون صاعدًا، فيؤدي إلى النمو والتكامل شيئًا فشيئًا حتى يبلغ ذروة كماله، وهذا ما نقصده بالتدرج «الصاعد»، ويقابله في الصعود مصطلحات كالطفرات والقفزات والاندفاع والتعجل، تدل على ما لا يلائم الهدف ولا يتناسب مع الاستطاعة.

٣ـ وقد يكون هابطًا، ويطلق عليه التدلية، كإنزال الدلو شيئًا فشيئًا، وقد عبر القرآن الكريم عن عملية تدرج الشيطان بالإغواء بأنها خطوات

(١) الشريعة الإسلامية بين التدرج في التشريع والتدرج في التطبيق للشيخ عبدالرحمن حبنكة ص (١٢).

لكنها هابطة فقال: ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ﴾ [البقرة: ١٦٨]، وعبر عنها بالتدلية فقال تعالى: ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٖ﴾ [الأعراف: ٢٢].

٤ـ والتدرج هو أنجع الوسائل للنجاح في تحقيق الخير أو الشر، فحذرنا القرآن الكريم بقوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ﴾ [البقرة: ١٦٨]. وللتركيز على بيان خطورة أساليب الشيطان ومكره بالناس، تكررت في القرآن عبارة ﴿خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ﴾ خمس مرات.

ثانيًا ـ التدرج سنة ربانية:

فالله تعالى له إرادتان إرادة كونية قدرية، وإرادة تشريعية تكليفية، قال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُ﴾ [الأعراف: ٥٤]، وجرت إرادتا الله القدرية والأخرى التشريعية وفق سنة التدرج التي شاءها الله سبحانه وتعالى.

من مظاهر سنة التدرج

أولًا ـ التدرج في الخلق:

الله تعالى هو «الرب» فله الربوبية. والتربية: الإنشاء المتدرج للشيء، حيًّا كان أم غير ذي حياة، وتعهدُ للشيء حالًا فحالًا، وطورًا بعد طور، وربوبية الله لخلقه تشمل الإيجاد والإنشاء المتدرج حتى الذروة، وكذلك الإفناء التنازلي حتى الحضيض، وكل ذلك ضمن إطار التكليف.

يستثنى من سنة الرب سبحانه في الخلق والإيجاد ترقية أو تنكيسًا المعجزات والكرامات والخوارق، فقد لا تخضع أحيانًا لسنة التدرج أو لبعض مفرداتها، ففي الغالب تتم دفعة واحدة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٖ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩] ولا تخفى الحكمة من هذا الخلق الاستثنائي في بيان قدرته تعالى، ولإثبات دعوى الرسالة وصدق المرسل إليه،

وكذلك يلحظ الإنسان التدرج في المشاهدات التي يراها في الكون من الذرة إلى المجرة، ومن الخلية إلى الجسم، كل ذلك خاضع لسنة الإيجاد المتدرج.

الإنسان نموذج للخلق المتدرج:

ولنأخذ الإنسان على سبيل المثال: لا يخفى أن الله خلق كل إنسان خلقًا متدرجًا، من نطفة فعلقة فمضغة فعظام فخلق كامل فوليد فرضيع فطفل فشاب وهكذا حتى يبلغ أشده ثم الشيخوخة، نرى الصعود المتدرج والهبوط المتدرج وليس بالضرورة أن يتساويا زمانيًا، أو يمر كل إنسان بكل مراحل الصعود وبكل مراحل الهبوط، قال تعالى: ﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ﴾ [الحج: ٥] أي: قبل اكتمال كل هذه المراحل ثم قال: ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ﴾ وذلك لحكمة الابتلاء والاستخلاف.

ثانيًا ـ التدرج في الأمر:

يتجلى ذلك في أمور منها: تعدد الرسالات والرسل بما يواكب التدرج البشري، وهذه الرسالات اتحدت بثوابت العقيدة وأمهات الأخلاق، واختلفت في كثير من الأحكام

والتكاليف، مراعاة لأحوال البشر وقدراتهم، وكانت شريعة الإسلام خاتمة الرسالات، ونبينا محمد عليه الصلاة والسلام خاتم الأنبياء والمرسلين.

وكما وقع التدرج في إرسال الرسالات فقد وقع في أحكام الشريعة الواحدة لا ريب في ذلك، ولنأخذ شريعة الإسلام مثلًا على ذلك.

التدرج في شريعة الإسلام

وقع التدرج في جملة من أحكام الإسلام ونظامه التشريعي، فنزل القرآن منجمًا، وفي ذلك حِكَم ذكرها أهل العلم، منها التدرج في الأحكام ومسايرة الحوادث وأسباب النزول، والتدرج في تربية الأمة وإعدادها لتكون خير أمة أخرجت للناس، والتدرج في أساليب الخطاب، وتذكير المخاطبين. فكان الخطاب ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ في بداية الدعوة، ثم خوطب المؤمنون ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ لما زادوا وكثروا وصار لهم كيان، وخوطب أهل الكتاب ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ بعدما ساكنهم المسلمون في المدينة.

وكذلك دعوة الإسلام تدرجت في مراحلها من فردية إلى أسرية، ثم العشيرة الأقربين، ثم مكة أم القرى ومن حولها، ثم انتقلت دعوته لقبائل العرب ولأهل جزيرتها، ثم للبشرية جمعاء. وكذلك وقع التدرج في أساليب الدعوة، من سرية إلى جهرية محدودة، ثم إلى الصدع الكامل بما يؤمر به، ثم تحمل الأذى بشتى أنواعه، ثم الهجرة إلى الحبشة ثم إلى المدينة، ثم بناء الدولة والمجتمع، ثم الإذن بالجهاد والقتال في سبيل الدفاع عن الإسلام وخدمة الدعوة ونشر الرسالة.

ومن أشكال التدرج في التشريع الإسلامي إقرار بعض الأحكام على خلاف ما جاءت به الشريعة فيما بعد وإقرار ما يترتب عليها من آثار، يقول في ذلك العز بن عبد السلام: (وَلِمِثْلِ هَذَا أَقَرَّ الشَّرْعُ مَنْ أَسْلَمَ مِنْهُمْ عَلَى الْأَنْكِحَةِ الْمَعْقُودَةِ عَلَى خِلَافِ شَرَائِطِ الْإِسْلَامِ... وَكَذَلِكَ بُنِيَ عَلَى الْإِسْلَامِ غُفْرَانُ جَمِيعِ الذُّنُوبِ لِأَنَّ عهْدَهَا لَوْ بَقِيَتْ بَعْدَ الْإِسْلَامِ لَنَفَرُوا، وَكَذَلِكَ قَالَ جَمَاعَةٌ قَدْ زَنَوْا فَأَكْثَرُوا مِن الزِّنَا وَمِنْ غَيْرِهِ مِن الْكَبَائِرِ لِرَسُولِ اللَّهِ ـ ﷺ ـ إنَّ مَا تَقُولُ وَتَدْعُو إلَيْهِ لَحَسَنٌ لَوْ تُخْبِرُنَا أَنَّ لِمَا عَمِلْنَا كَفَّارَةً؟ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ﴾ [الزمر: ٥٣] وَقَالَ فِي غَيْرِهِمْ ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨]، وَإِنَّمَا أَمَرَهُمْ فِي ابْتِدَاءِ الْإِسْلَامِ بِإِفْشَاءِ السَّلَامِ، وَإِطْعَامِ الطَّعَامِ، وَصِلَةِ الْأَرْحَامِ، وَالصِّدْقِ وَالْعَفَافِ، لِأَنَّ ذَلِكَ كَانَ مُلَائِمًا لِطِبَاعِهِمْ حَاثًّا عَلَى الدُّخُولِ فِي الإسلام)[1].

وكذلك الأمر في التشريع الجنائي (نظام العقوبات) إذ استقرت ملامحه في السنة الثامنة للهجرة، ولا تخفى الحكمة من تأخر تشريعه. والمحظورات المألوفة تدرج تنزيل الأحكام فيها، فالخمر استقر حكمها النهائي في السنة الثامنة للهجرة، وتحريم الربا في التاسعة[2].

(١) قواعد الأحكام في مصالح الأنام (٦٤/١).

(٢) القانون الإسلامي لأبي الأعلى المودودي ترجمة محمد عاصم الحداد ص (٥١).

وقد وقع التدرج في الأمر كما في الجهاد، وفي النهي كما في تحريم الخمر، وفي التشريعات العامة كما في مسألة تحويل القبلة، ولنعرض هنا للجهاد كنموذج للتدرج في الأمر.

الجهاد نموذج للتدرج في الأمر:

في كتابه (زاد المعاد)[1] بيّن الإمام ابن القيم مسيرة هذا التدرج بتفصيل واسع أُورد هنا مختصرًا عنه، على الترتيب التالي:

١ـ نبأ الله نبيه بقوله ﴿اقرأ﴾ وأرسله بـ﴿المدثر﴾.

٢ـ ثمّ أمره بقوله ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤].

٣ـ ثم بقوله ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف: ٤٤].

٤ـ ثم مكة ومن حولها بقوله ﴿وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [الشورى: ٧].

٥ـ ثم العرب قاطبة

٧ـ ثم العالمين أجمعين

وفي كل هذه المراحل لم يشرع للمسلمين القتال، بل أمروا بالكف والصبر والصفح.

٧ـ ثم أذن للنبي ﷺ بهجرة أصحابه الهجرتين إلى الحبشة.

٨ ـ ثمّ أُمر بالهجرة إلى المدينة فهاجر.

٩ـ ثم أُذن له بقتال من قاتله، وأمر بالكف عمن اعتزله ولم يقاتله.

١٠ـ ثم أُمر بقتال المشركين حتى يكون الدين كله لله.

١١ـ ثمّ كان له مع الكفار ثلاثة أحوال: أهل صلح وهدنة، وأهل حرب، وأهل ذمة.

١٢ـ ثم أُمر بأن يتم لأهل العهد والصلح عهدهم ما استقاموا عليه، فإن خاف منهم خيانة نبذ لهم عهدهم على سواء، ولم يقاتلهم حتى يعلمهم بانتهاء العهد، وأما من نقض العهد بالفعل فأُمر بقتاله، ثمّ بعد نزول سورة التوبة جعل أهل العهد ثلاثة أقسام:

الأول: من نقض عهده، وقد أُمر بقتالهم.

الثاني: من كان لهم عهد مؤقت لم ينقضوه ولم يظاهروا عليه أحدًا، فأُمر أن يتم إليهم عهدهم إلى مدتهم.

الثالث: قسم لم يكن لهم عهد ولم يحاربوه، أو كان لهم عهد مطلق، فأمره أن يمهلهم أربعة أشهر، فإذا انقضت مدتهم قاتلهم.

وكما وقع التدرج في الأوامر كما في الجهاد، فقد وقع التدرج في النواهي كما في تحريم الخمر، ووقع التدرج في الأحكام التشريعية كما في تحويل القبلة. وفوق ذلك وقع التدرج في تطبيق الشريعة ذاتها، وتنزيلها على الواقع.

التدرج في تطبيق الشريعة

ومن التدرج أيضًا التدرج في تطبيق الشريعة: والمراد به (تطبيق أحكام الشريعة على مراحل عند العجز عن تطبيقها كاملة، بحيث يطبق في كل

(١)زاد المعاد (١٤٣/٣).

مرحلة عدد من الأحكام التي تهيأت الظروف المناسبة لها إلى حين الوصول إلى التطبيق الكامل لكل أحكام الشريعة)[١].

مبادئ لا بدّ منها في التدرج في تطبيق الشريعة

وهنا لا بد من ذكر المبادئ التي تحكم مسألة تطبيق الشريعة، لبيان ما علق بهذه القضية في أذهان بعض المسلمين من تصورات موافقة أو مخالفة لما جاء به الإسلام.

المبدأ الأول: وجوب تطبيق الشريعة الإسلامية في كل شؤون الحياة

قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٤٨ ـ ٥٠].

قال ابن كثير في تفسير هذه الآيات: «ينكر الله تعالى على من خرج من حكم الله المحكم المشتمل على كل الخير، الناهي عن كل شر، وعدل إلى ما سواه من الآراء والأهواء والاصطلاحات التي وضعها الرجال بلا مستند من شريعة الله، كما كان أهل الجاهلية يحكمون به من الضلالات والجهالات مما يضعونه بآرائهم وأهوائهم، وكما يحكم به التتار من السياسات الملكية المأخوذة عن ملكهم (جنكيز خان) الذي وضع لهم (الباسق) وهو عبارة عن كتاب مجموع من أحكام قد اقتبسها من شرائع شتى، من اليهودية والنصرانية والملة الإسلامية وغيرها، وكثيرٌ من الأحكام أخذها من مجرد نظره وهواه، فصارت في بنيه شرعًا متبعًا يقدمونه على الحكم بكتاب الله وسنّة رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم، فلا يحكّم سواه في قليل ولا كثير»[٢].

وقد سمّى القرآن كلّ من حُكّم من دون شرع الله «طاغوتا» فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ [النساء: ٦٠]، قال ابن القيم: «والطاغوت كل ما تجاوز به العبد حدّه من معبود أو متبوع أو مطاع، فطاغوت كل قوم من يتحاكمون إليه غير الله ورسوله، أو ما يعبدونه من دون الله، أو يتبعونه على غير بصيرة من الله، أو يطيعونه فيما لا يعلمون أنه طاعة لله، فهذه طواغيت العالم»[٣] وهناك نصوص كثيرة في الكتاب والسنة تؤكّد هذا المعنى وتبيّنه.

(١) التدرج في تطبيق الشريعة وعلاقته بالسياسة الشريعة لزياد الفواز ص٢٢

(٢) تفسير ابن كثير ٥٤٠/٢

(٣) إعلام الموقعين ٥٠/١

المبدأ الثاني: ترابط أحكام الشريعة وتكاملها

إن الشريعة بكل أجزائها ومفرداتها وأحكامها مترابطة متكاملة، آخذٌ بعضها بحجز بعض، فلا يفصل التشريع الجنائي عن أحكام الأسرة وما يصطلح عليه بالأحوال الشخصية، ولا يفصل التشريع الأخلاقي عن أحكام المعاملات كالبيع والشراء والإجارة وغيرها، ولهذا شدد الله النكير والوعيد على من يأخذ ما يحلو له ويترك ما لا يعجبه من شرع الله، فقال تعالى: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ﴾ [البقرة: ٨٥].

المبدأ الثالث: وجوب التطبيق الفوري لكامل الشريعة عند الإمكان

إنّ كل تكاليف الشريعة سواء أكانت على مستوى الفرد أو الجماعة أو الأمة منوطةٌ بالقدرة والاستطاعة، وهذه قاعدة محكمة من قواعد الشريعة جاءت بها الآيات الكريمة من مثل قوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، والأحاديث الكريمة من مثل قوله عليه الصلاة والسلام: «إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم»[١].

ومن المعلوم أن الشريعة جاءت باليسر ورفع الحرج عن الناس قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ﴾ [الحج: ٧٨]، أوضح مثال على هذا واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فقد جاء في الحديث: «من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان»[٢] وهذا يلتمس منه التدرج في تطبيق الشريعة عند العجز عن إقامتها كاملة، عقب ابن رجب على هذا الحديث فقال: (فمن شهد الخطيئة فكرهها بقلبه كان كمن لم يشهدها إذا عجز عن إنكارها بلسانه ويده، ومن غاب عنها فرضيها كان كمن شهدها وقدر على إنكارها ولم ينكرها)[٣].

المبدأ الرابع: الشريعة تطبق على الجميع

كل الناس سواء أكانوا حكامًا أو محكومين، ذكورًا أم إناثًا على اختلاف مكانتهم الاجتماعية وأحوالهم الاقتصادية تحت سلطان الشريعة وأحكامها، لا سيّما في مجال العقوبات والحدود التي قد يُتسامح فيها مع أصحاب المناصب والرياسات، وقد أخبرنا عليه الصلاة والسلام أن هذا السلوك المتناقض من أحد أسباب زوال الأمم وهلاكها، فقال: «إنما أهلك الذين قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد»[٤].

المبدأ الخامس: كمال الشريعة وانتهاء التدرج في التشريع

لقد شهد الله على كمال شريعته بنص كتابه فقال: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ

(١) متفق عليه عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه عن أبي سعيد الخدري

(٣) غذاء الألباب١/٢٢٧

(٤) متفق عليه عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣] فشرعُ الله اكتمل، ولا يعني ذلك أنه فصّل في كل ما يعتري حياة الناس من مستجدات ونوازل، لذا بيّن العلماء الأحكام الراسخة في الشريعة والأحكام النازلة التي تستدعي اجتهادًا منضبطًا بقواعد الشريعة التي استخرجها العلماء من نصوص الشريعة ودلالة ألفاظها، وبذل علماء الشريعة جهودًا عظيمة في مجالين أساسيين، الأول: في حفظ نصوص الشريعة لا سيّما الحديث النبوي، وكان من ثمرة ذلك علوم أصول الحديث ومصطلحه، والثاني: في فهم هذه النصوص واستنباط الأحكام منها، وكان من ثمرة ذلك علم أصول الفقه، ومن ثمّ ثمرته علم الفقه.

المبدأ السادس: التدرج في التطبيق لا يشمل الجانب العقائدي

فهذا الجانب لا مساومة فيه ولا تنازل عنه، فهو يشكل الملمح الأساس لهوية الدين، وعليه يحمل قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ [الكافرون: ١ ـ ٢]، ثم يبين عدم وقوع ذلك في كل الأزمنة فيقول: ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ﴾ [الكافرون: ٤]، فهو ينفي جوازه شرعًا ووقوعه فعلًا، فهو متضمنٌ نفي الفعل وكراهيته، فلو اقتصر على «لا أفعل» فقد يترك الإنسان فعل شيء لسبب آخر مع أنه يرغب به، فأكد ذلك بكلمة «ما أنا بفاعل» فهذا يدل على البغض والكراهية.

المبدأ السابع: التدرج سنة إلهية في تغيير المجتمعات

استمر الصرح الإسلامي بالبناء والتشييد إلى أن بنى المسلمون حضارة عالمية، لم تسمح «للطفرة» أن تحل محل «التدرج» ولا «للثورة» أن تحل محل «الإصلاح»، لقد راعت الدعوة الإسلامية قوانين التغيير الاجتماعية التي قررها الباحثون فيما بعد، فمن جملة ذلك أن التغيير في المجتمع الإنساني «دورات متتالية» وليس خطًّا مستقيمًا صاعدًا نحو الصلاح أو هابطًا نحو الفساد، ففي هذه الدورات يكون فيها صعود وهبوط في داخلها لكنها في الجملة كانت صاعدة، قال عليه الصلاة والسلام: «لا يلبث الجور بعدي إلا قليلًا حتى يطلع، فكلما طلع من الجور شيء ذهب من العدل مثله، حتى يولد في الجور من لا يعرف غيره، ثم يأتي الله تبارك وتعالى بالعدل، فكلما جاء من العدل شيء ذهب من الجور مثله، حتى يولد في العدل من لا يعرف غيره»(١)، فدورات العدل والجور محكومة بسنة التدرج، كظاهرتي شروق الشمس وغروبها، فالصلاح لا يكون طفرة، والفساد لا يحدث فجأة، وبينهما تناسب عكسي فعندما يتمدد العدل يتقلص الفساد والعكس صحيح، يقول سيد رحمه الله: (ولقد جاء هذا القرآن ليربي أمة، ولينشئ مجتمعًا، ويقيم نظامًا، والتربية تحتاج إلى زمن وتأثر وانفعال بالكلمة، وإلى حركة تترجم التأثر والانفعال إلى واقع، والنفس البشرية لا تتحول تحولًا كاملًا شاملًا بين يوم وليلة، بقراءة كتاب شامل للمنهج الجديد، وإنما تتأثر يومًا بعد يوم بطرف من هذا المنهج، وتتدرج مراقيه رويدًا رويدًا، وتعتاد على حمل تكاليفه شيئًا فشيئًا، فلا

(١) أخرجه أحمد في المسند عن معقل بن يسار بإسناد ضعيف

تجفل منه كما تجفل لو قدّم لها ضخمًا ثقيلًا عسيرًا)[١].

المبدأ الثامن: اعتبار النظر إلى المآلات

وهذه قاعدة عظيمة في تحقيق المصالح ودرء المفاسد، وهو أساس «فقه الموازنات» قال الإمام ابن تيمية رحمه الله: (العمل الواحد يكون فعله مستحبًا تارةً وتركه تارةً، باعتبار ما يترجح من مصلحة فعله وتركه بحسب الأدلة الشرعية، والمسلم قد يترك المستحب إذا كان في فعله فسادٌ راجحٌ على مصلحته) ثم ذكر حديث عائشة «لولا أنّ قومك حديثو عهد بجاهلية لأمرت بالبيت فهدم فأدخلت فيه ما أخرج منه، وألزقته بالأرض، وجعلت له بابين، بابًا شرقيًا وبابًا غربيًا، فبلغت به أساس إبراهيم»[٢] وعلق عليه فقال: (فترك النبي ﷺ هذا الأمر الذي كان عنده أفضل الأمرين للمعارض الراجح وهو حدثان عهد قريش بالإسلام، لما في ذلك من التنفير لهم، فكانت المفسدة راجحة على المصلحة) ثم عقب على ذلك بقوله: (لذلك استحب الأئمة أحمد وغيره أن يدع الإمام ما هو عنده أفضل إذا كان فيه تأليف للمأمومين، مثل أن يكون عنده فصل الوتر أفضل بأن يسلّم في الشفع ثم يصلي ركعة الوتر، وهو يصلي بقوم لا يرون إلا وصل الوتر، فإذا لم يمكنه أن ينقلهم إلى الأفضل كانت المصلحة الحاصلة بموافقته لهم بوصل الوتر أرجح من مصلحة فصله)[٣]، ثم ذكر أمثلة أخرى كالجهر بالبسملة في الصلاة فيترك ما يراه راجحًا مراعاةً لجمع الكلمة وتأليف القلوب، وقال ابن القيم: (إذا رأيت الفساق قد اجتمعوا على لهو ولعب أو سماع مكاء وتصدية، فإن نقلتهم عنه إلى طاعة الله فهو المراد، وإلا كان تركهم على ذلك خيرًا من أن تفرغهم لما هو أعظم من ذلك، فكان ما هم عليه شاغلًا لهم عن ذلك، وكما إذا كان الرجل مشتغلًا بكتب المجون ونحوها وخفت من نقله عنها انتقاله إلى كتب البدع والضلال والسحر فدعه وكتبه الأولى، وهذا الباب واسع)[٤].

الأسئلة المهمة في مسألة التدرج

في الحديث عن التدرج تستوقف المسلم أسئلة في غاية الأهمية، ومن دون الإجابة عليها يكون من الصعوبة بمكان بناء تصور متكامل عن فقه التدرج في الشريعة الإسلامية، ولعل أبرز هذه الأسئلة ثلاثة، هي:

١ـ هل توقَّف التدرج في التطبيق مع توقُّف التدرج في التشريع؟ أو يمكن أن يستمر التدرج في التطبيق بما يناسب أحوال المجتمعات؟

٢ـ هل نقل عنه ﷺ ما يدل على اعتباره تدرجَ التطبيق؟ بمعنى أنه أخّر المطالبة بتكليف شرعي بعد ثبوت حكمه وتشريعه.

٣ـ من الذي يحدد مراحل التدرج في التطبيق على اختلاف المستويات؟

(١) تفسير الظلال ٥/٢٥٦٤.

(٢) متفق عليه عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٣) مجموع الفتاوى ٢/٣٥٥.

(٤) إعلام الموقعين ٣/٥.

هذه الأسئلة المفصلية التي نتج عن الإجابة عليها بأشكال غير منضبطة آثارٌ كثيرة، سببت انقسامًا كبيرًا بين العاملين والدعاة للإسلام، ونتج عنها غلوٌ في التكفير للحكام والمحكومين على حد سواء، وكذلك فشلت كثير من المشاريع الإسلامية لعدم مراعاتها هذه السنة الربانية، ولأهمية هذا الموضوع لا بدّ من التفصيل فيه من جوانب مختلفة، فأبين ما يأتي:

أولًا: الشريعة لا تطبق إلاّ في مجتمع مؤمن

من الثابت أنّ أيّ قانون لا يمكن أن يحقق نجاحًا إلا في مجتمع يؤمن به، ويدرك أهميته، وإلا صار مجرد نظرية ليس لها حظ من الالتزام والعمل، ويؤكد هذا أن معظم تشريعات الإسلام قُررت في المدينة ولم تنزل في مكة، لأنّ الغلبة في مكة للكفار، فعامة المجتمع لا تقرّ بهذه التشريعات، وهذه الحقيقة أثبتها التاريخ عبر عصوره المديدة، فكلما قوي الإسلام في مجتمع وتمكن الإيمان فيه كان أقرب إلى تطبيق الشريعة من غيره، وكان التزامه في أغلب الأحيان يعطي صورة مشرقة تغري الآخرين بهذا الدين، وإذا اقتصر الأمر على رفع شعارات الإسلام فإنه سيعطي صورة مشوهة وناقصة كما يحصل في بعض البلاد اليوم، ومثال ذلك بعض الدول التي أعلنت عن تطبيق الشريعة فبدأت بتطبيق الحدود مع قصور واضح في المجالات الأخرى التي لا بد منها لتهيئة الناس، كمناهج التربية والتعليم والإعلام والوضع الاقتصادي والاجتماعي، مما أظهر الشريعة متناقضة مع نفسها، وأعطى صورة منفرة عنها. وللمجتمعات في تطبيق الشريعة أصناف:

الصنف الأول:

هناك مجتمع قطعت الدعوة فيه أشواطًا بعيدة فأحدثت بيئة إسلامية تنقاد طواعية لأحكام الشريعة، لما تذوّق أفرادها من حلاوة الإيمان، فغدوا يتطلعون لتحكيم الشريعة في كل جوانب الحياة، وأصبح ذلك مطلبًا شعبيًا لعامة الناس أو أغلبهم، وينطبق هذا على المجتمع الإسلامي الأول مجتمع المدينة، فقد استقرّ الإيمان في قلوبهم وذاقوا حلاوته، فكان التدرج في التشريع وليس في التطبيق، إذ وجدنا أنه كلما نزل تشريع سارعوا إلى تطبيقه طواعية بمجرد حصول التبليغ والعلم به، وأما المنافقون وهم الأقل فكانوا يساقون بسلطان الدولة، وينقادون لنظامها العام، وما كان بينهم وبين ربهم فقصورهم فيه يعود عليهم وحدهم، ويشهد على الالتزام الطوعي لأحكام الشريعة كثير من أحداث ذلك العصر، منها ما وقع عند نزول تحريم الخمر، فقد هرعوا إلى دنانهم فأهرقوها وبعضهم كسرها وإن لم يؤمروا بذلك، لكن مبالغة منهم في إظهار الامتثال، ولهذا أمثلة وشواهد فردية وجماعية كثيرة روتها كتب السير والسنة النبوية.

الصنف الثاني:

ومجتمع آخر حديث عهد بإسلام، دخل الناس فيه حديثًا في الدين، فلا بدّ في هذا المجتمع من تحديد الأولويات، وتقديم الأهم على المهم، ومثال ذلك التركيز على عقيدة التوحيد وأركان الإسلام

الكبرى كالصلاة والصيام والزكاة، والمحرمات القطعية كالربا والزنا وشرب الخمر، ويندرج هذا تحت ما يسميه الفقهاء اصطلاحًا (ما علم من الدين بالضرورة) والتدرج هنا ليس تدرج تشريع وإنما تدرج تطبيق، وأمثلته حال من دخل في الإسلام زمن النبي عليه الصلاة والسلام فرادى أو جماعات، وخير بيان لهذا الهدي حديث معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حين بعثه عليه الصلاة والسلام إلى اليمن، فقد جاء فيه قوله عليه الصلاة والسلام: «ادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، فإن هم أطاعوا لذلك فأعلمهم أن الله قد افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة، فإن هم أطاعوك لذلك فأعلمهم أن الله قد افترض عليهم صدقة في أموالهم تؤخذ من أغنيائهم وترد على فقرائهم»[1].

الصنف الثالث:

وهناك مجتمع هو مسلم بالأساس وليس حديث عهد فيه، لكن اعتراه كثير من التشويه والبعد عن حقائق الإسلام وجوهره، وتعطيل كثير من أحكامه كحال كثير من المجتمعات المسلمة اليوم، لا سيما إن طال عليها الأمد وألفت كثيرًا من المحظورات التي لا تجيزها الشريعة، فهل يجب العمل على عودة الأمة والمجتمع إلى كل تشريعات الإسلام دفعة واحدة، أو يمكن أن يسلك التدرج في التطبيق حتى يعود الناس شيئًا فشيئًا إلى الالتزام الكامل بأحكام الشريعة؟ هنا انقسم العاملون في الشأن الإسلامي المعاصر إلى فريقين:

الفريق الأول: ينادي بشمول الشريعة، وأنه بعد اكتمال الشريعة لا يسوغ التدرج.

واستدلوا على ذلك فيما اصطلح على تسميته بأدلة (الحاكمية) من مثل قوله تعالى ﴿وَأَنِ ٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ وَٱحۡذَرۡهُمۡ أَن يَفۡتِنُوكَ عَنۢ بَعۡضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ﴾ [المائدة: ٤٩] وقوله في مجال الإنكار: ﴿أَفَتُؤۡمِنُونَ بِبَعۡضِ ٱلۡكِتَٰبِ وَتَكۡفُرُونَ بِبَعۡضٖۚ﴾ [البقرة: ٨٥].

وقد اعتبر هذا الفريق الخروج عن بعض جزئيات الدين كالخروج عنه بالكلية، وممن سلك هذا المسلك سيد ومحمد قطب، وعبد القادر عودة وغيرهم، وفندوا شبه التدرج في التطبيق بعد اكتمال التشريع، واعتبروا الأخذ بالبعض وترك البعض أو تأجيله عملًا بالهوى، والانتقائية في ذلك تستند إلى مصلحة موهومة مزعومة، وكل ذلك بحقيقته تساهل ومدخل من مداخل الشيطان بحجة تأليف القلوب وإرضاء المجموع، يقول سيد رحمه الله: (إن شريعة الله أبقى وأغلى من أن يضحَّى بجزء منها في مقابل شيء قدر الله ألا يكون، فالناس قد خلقوا ولكل منهم استعداد، ولكل منهم مشرب، ولكل منهم منهج، ولكل منهم طريق، ولحكمة من حكم الله خلقوا هكذا مختلفين، وقد عرض الله عليهم الهدى وتركهم يستبقون، وجعل هذا ابتلاءً لهم يقوم عليه جزاؤهم يوم يرجعون إليه، وهم إليه راجعون، وإنها لفعلة باطلة إذن، ومحاولة فاشلة أن يحاول أحدٌ تجميعهم على حساب شريعة الله، بتعبير آخر على حساب صلاح البشرية وفلاحها، فالعدول أو التعديل في شريعة

(١) متفق عليه عن معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الله لا يعني شيئًا إلا الفساد في الأرض، وإلا الانحراف عن المنهج الوحيد القويم، وإلا انتفاء العدالة في حياة البشر، وإلا عبودية الناس بعضهم لبعض) إلى أن يقول: (وهو شرٌ عظيم وفساد عظيم لا يجوز ارتكابه في محاولة عقيمة لا تكون)[١].

الفريق الثاني: يرى العمل بالتدرج بالتطبيق.

هذا الفريق يرى أن التدرج في التطبيق مختلف تمامًا عن التدرج في التشريع، ومن أشهر من تبنى ذلك من المعاصرين المودودي والقرضاوي، واستدلوا بأمور:

الدليل الأول:

المعنى المستوحى من التدرج التشريعي زمن الرسالة إذ الحكمة منه مراعاة أحوال الناس، وإعانتهم على قبول الحق والإذعان له، وهذه حكمة معتبرة بعد زمن الرسالة تقتضي تدرج التطبيق، يقول ابن تيمية: (إنَّ مِنَ الْمَسَائِلِ مَسَائِلَ جَوَابُهَا السُّكُوتُ كَمَا سَكَتَ الشَّارِعُ فِي أَوَّلِ الْأَمْرِ عَنْ الْأَمْرِ بِأَشْيَاءَ وَالنَّهْيِ عَنْ أَشْيَاءَ حَتَّى عَلَا الْإِسْلَامُ وَظَهَرَ، فَالْعَالِمُ فِي الْبَيَانِ وَالْبَلَاغِ كَذَلِكَ؛ قَدْ يُؤَخِّرُ الْبَيَانَ وَالْبَلَاغَ لِأَشْيَاءَ إلَى وَقْتِ التَّمَكُّنِ كَمَا أَخَّرَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ إنْزَالَ آيَاتٍ وَبَيَانَ أَحْكَامٍ إلَى وَقْتِ تَمَكُّنِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ تَسْلِيمًا إلَى بَيَانِهَا)[٢].

الدليل الثاني:

نقل عنه ﷺ أنه رخّص في بعض الأحوال بشرائع مخصوصة مع أنها شرعت واكتمل تشريعها، فمن ذلك حديث: اشترطت ثقيف على رسول الله ﷺ ألاّ صدقة عليهم ولا جهاد، وأنّ رسول الله ﷺ قال: «سيتصدقون ويجاهدون»[٣] وحديث نصر ابن عاصم الليثي «عن رجل منهم أنّه أتى النبي ﷺ فأسلم على ألا يصلي إلا صلاتين فقبل منه»[٤] قال ابن رجب: (وأخذ الإمام أحمد بهذه الأحاديث وقال: يصح الإسلام على الشرط الفاسد ثم يلزم بشرائع الإسلام كلها، واستدلّ أيضًا بحديث حكيم ابن حزام قال: (بايعت النبي ﷺ على ألا أخرّ إلا قائمًا)[٥]، قال أحمد: (معناه أن يسجد من غير ركوع)[٦].

وقد ذهب بعض أهل العلم كالسيوطي في «الخصائص الكبرى» إلى أنّه من خصائصه عليه الصلاة والسلام أن يخص من شاء بما شاء من الأحكام، ويسقط عمن شاء ما شاء من الواجبات، لكن يلتمس من كل ذلك التدرج، فقال عن ثقيف بأنهم سيتصدقون ويجاهدون، ومن المعلوم بالضرورة أنّ النبي ﷺ كان يقبل مِن كل مَن جاءه يريد الدخول في الإسلام الشهادتين فقط، ويعصم دمه بذلك ويجعله مسلمًا، وتعددت الروايات في بيعته كثيرين؛ بعضهم على الشهادتين وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة فقط، وبعضهم بايعهم على أكثر من ذلك، مع أن الأحكام مستقرة، لكن كان يطالبهم فيما بعد بكامل الشرائع والواجبات، وخرّج

(١) في ظلال القرآن ٢/٧٤٨.
(٢) مجموع الفتاوى ٢٠/٥٩.
(٣) أخرجه أحمد في المسند وفي سنن أبي داود عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
(٤) أخرجه أحمد في المسند وفي مصنف ابن أبي شيبة.
(٥) أخرجه أحمد في المسند وسنن النسائي.
(٦) جامع العلوم والحكم ص ١٠٥.

العلماء قبول اشتراط الكافر على إسلامه شرطًا فاسدًا على قاعدة تقديم المفسدة الأخف على الأشد عند تزاحم المفاسد، فلو اشترط شرب الخمر فإنه أهون من بقائه على كفره، وبالمقابل يمكن ترك مصلحة خوف مفسدة،

الدليل الثالث:

سيرة الخليفة الراشد الخامس عمر بن عبد العزيز، إذ إن عمر لم تكن تنقصه الحماسة ولا الغيرة على الدين وأحكامه وحرماته، فقد نقل عنه قوله: (لو كان كل بدعة يميتها الله على يدي، وكل سنة ينعشها الله على يدي ببضعة من لحمي حتى يأتي آخر ذلك على نفسي كان في الله يسيرًا)[١].

ولكن عمر كان يرى أن الإصلاح والتغيير له سننه وقوانينه، يلخص ذلك جوابه لابنه عبد الملك الذي اعترض على أبيه تباطؤه في تنفيذ كل الأحكام وإقامة العدل في كل المسائل والقضايا. قال عبد الملك لأبيه: (ما أنت قائل لربك غدًا إذا سألك فقال: رأيت بدعة لم تمتها وسنة لم تحيها؟) فقال له عمر: (رحمك الله وجزاك من ولد خيرًا، وأرجو أن تكون من الأعوان على الخير، يا بني: إن قومك شدوا هذا الأمر عقدة عقدة وعروة عروة، ومتى أريد مكابرتهم على انتزاع ما في أيديهم لم آمن أن يفتقوا عليّ فتقًا تكثر فيه الدماء، والله لزوال الدنيا أهون عليّ من أن يراق بسببي محجنة من دم، أو ما ترضى ألا يأتي على أبيك يوم من أيام الدنيا إلا وهو يميت فيه بدعة، ويحيي فيه سنة حتى يحكم الله بيننا وبين قومنا بالحق وهو خير الحاكمين)[٢].

وفي مناسبة أخرى قال له: (يا بني، إن الله ذم الخمر في القرآن مرتين ثم حرمها في الثالثة، وأنا أخاف أن أحمل الحق على الناس جملة فيدفعونه جملة، ويكون من ذلك فتنة)[٣].

إن المعنى الذي قرره عمر بن عبد العزيز هو ما اصطلح على تسميته (اعتبار المآلات) فتغيير ما شاب عليه الكبير وشبّ عليه الصغير ليس أمرًا سهلًا، فمن وُلد في الظلم فلربما مع طول العهد والألفة يظنه عدلًا، فهذا يحتاج لوقت حتى يعرف الحق والعدل ويألفهما، لذا نلاحظ من سياسته رحمه الله التدرج في الإصلاح، فكانت البداية بنفسه إذ جعلها قدوة صالحة، ثم بدأ برد المظالم التي وقع فيها بعض أسلافه إلى أهلها وإلى بيت مال المسلمين، وبقي في رد المظالم منذ تسلمه الخلافة إلى أن مات[٤]. وهذا يعني ضرورة التعايش مؤقتًا مع مقادير من الظلم والفساد حتى يحين الحين لتغييرها شيئًا فشيئًا إلى أن تزول، وكان من سياسته تغليف العدل بشيء من مطامح الدنيا، كالدواء المر الذي يخلط بشيء من السكر ليستطيع المريض تناوله، قال عمر بن عبد العزيز: (إني لأجمع أن أخرج للمسلمين أمرًا من العدل فأخاف ألا تحتمله قلوبهم، فأخرج معه طمعًا من طمع الدنيا، فإن نفرت القلوب من هذا سكنت إلى هذا)[٥]. وكان من أبرز ما قامت عليه سياسته في الإصلاح:

(١) طبقات ابن سعد ٣٤٣/٥.

(٢) تاريخ الخلفاء ص١٨٠.

(٣) مرآة الزمان في تاريخ الأعيان ٢٣٩/١٠.

(٤) طبقات ابن سعد ٢٥١/٥.

(٥) العقد الفريد ٢٣٢/٢.

١ـ التدرج والاهتمام بعنصر الوقت، فمما نقل عنه قوله: (لو أقمت فيكم خمسين عامًا ما استكملت فيكم ما أريد من العدل)[١]، وكان سعيه لاستكمال النقص وإصلاح الخلل في كل المجالات وليس في جانب على حساب جانب.

٢ـ الاستعانة بتولية الأصلح على شؤون الناس، قال ابن كثير: (وقد صرح كثير من الأئمة بأنّ كل من استعمله عمر بن عبدالعزيز ثقة)[٢].

٣ـ إقامة الشورى والعدل واستعادة دور الرعية، قال بعض السلف عن فترة توليته: (اليوم ينطق كل من كان لا ينطق)[٣].

٤ـ رد المظالم، وإعادة الأموال التي أخذت بغير حق إلى بيت المال، والحفاظ على المال العام، قال الماوردي: (كان عمر بن عبد العزيز رحمه الله أول من ندب نفسه للنظر في المظالم فردها وراعى السنن العادلة وأعادها)[٤].

الدليل الرابع:

قاعدة الاستطاعة المطردة في كل التكاليف الشرعية، وهذا من رحمة الله بعباده ولطفه بهم، ولذلك أدلة كثيرة من الكتاب والسنة، وشواهد كثيرة من السيرة النبوية، ومن ذلك: أن الهجرة فرضت على المسلمين في مكة، واعتبرت الآيات من لم يهاجر بأنه ظالم لنفسه قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ٩٧] وقطع الولاية عمن لم يهاجر فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يُهَاجِرُوا۟ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ ۚ﴾ [الأنفال: ٧٢]، ومع ذلك عذر القرآن قومًا لعدم استطاعتهم فقال: ﴿إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ [النساء: ٩٨ ـ ٩٩].

وقد بيَّن حديث المصطفى عليه الصلاة والسلام قاعدة التكليف الأساسية فقال: «ما نهيتكم عنه فاجتنبوه وما أمرتكم به فأتوا منه ما استطعتم»[٥]، قال النووي في تعقيبه على هذا الحديث: (هذا من قواعد الإسلام المهمة، ومن جوامع الكَلِم التي أعطيها النبي ﷺ، ويدخل فيه ما لا يحصى من الأحكام، كالصلاة بأنواعها)[٦]، وهذا الحديث موافق لقوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦].

يقول ابن تيمية رحمه الله في تقرير هذا الأمر: (فإذا حصل من يقوم بالدين من العلماء أو الأمراء أو مجموعهما كان بيانه لما جاء به الرسول شيئًا فشيئًا بمنزلة بيان الرسول لما بعث به شيئًا فشيئًا، ومعلوم أن الرسول لا يبلغ إلا ما أمكن علمه والعمل به، ولم تأت الشريعة جملة، كما يقال: إذا أردت أن تطاع فأمر بما يستطاع، فكذلك المجدد

(١) البداية والنهاية ٩/٢٠٠.
(٢) البداية والنهاية ٩/٢٠٨.
(٣) طبقات ابن سعد ٥/٣٤٤.
(٤) الأحكام السلطانية ص ٧٨.
(٥) متفق عليه عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
(٦) شرح صحيح مسلم ٣/٤٨٢.

لدينه والمحيي لسنته لا يبلغ إلا ما أمكن علمه والعمل به، كما أن الداخل في الإسلام لا يُمكن حين دخوله أن يُلقّن جميع شرائعه ويؤمر بها كلِّها)[١]، ثم يبين رحمه الله لطيفة مهمة فقال: (وَإِذَا لَمْ يُطِقْهُ لَمْ يَكُنْ وَاجِبًا عَلَيْهِ فِي هَذِهِ الْحَالِ، وَإِذَا لَمْ يَكُنْ وَاجِبًا لَمْ يَكُنْ لِلْعَالِمِ وَالْأَمِيرِ أَنْ يُوجِبَهُ جَمِيعَهُ ابْتِدَاءً، بَلْ يَعْفُوَ عَنِ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ بِمَا لَا يُمْكِنُ عِلْمُهُ وَعَمَلُهُ إلَى وَقْتِ الْإِمْكَانِ، كَمَا عَفَا الرَّسُولُ عَمَّا عَفَا عَنْهُ إلَى وَقْتِ بَيَانِهِ، وَلَا يَكُونُ ذَلِكَ مِنْ بَابِ إقْرَارِ الْمُحَرَّمَاتِ وَتَرْكِ الْأَمْرِ بِالْوَاجِبَاتِ، لِأَنَّ الْوُجُوبَ وَالتَّحْرِيمَ مَشْرُوطٌ بِإِمْكَانِ الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ، وَقَدْ فَرَضْنَا انْتِفَاءَ هَذَا الشَّرْطِ، فَتَدَبَّرْ هَذَا الْأَصْلَ فَإِنَّهُ نَافِعٌ، وَمِنْ هُنَا يَتَبَيَّنُ سُقُوطُ كَثِيرٍ مِنْ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ وَإِنْ كَانَتْ وَاجِبَةً أَوْ مُحَرَّمَةً فِي الْأَصْلِ، لِعَدَمِ إمْكَانِ الْبَلَاغِ الَّذِي تَقُومُ بِهِ حُجَّةُ اللَّهِ فِي الْوُجُوبِ أَوْ التَّحْرِيمِ، فَإِنَّ الْعَجْزَ مُسْقِطٌ لِلْأَمْرِ وَالنَّهْيِ، وَإِنْ كَانَ وَاجِبًا فِي الْأَصْلِ، وَاَللَّهُ أَعْلَمُ)[٢].

وفي ذلك أيضا يقول العز بن عبد السلام رحمه الله: (إذَا اجْتَمَعَتِ الْمَصَالِحُ الْأُخْرَوِيَّةُ الْخَالِصَةُ، فَإِنْ أَمْكَنَ تَحْصِيلُهَا حَصَّلْنَاهَا، وَإِنْ تَعَذَّرَ تَحْصِيلُهَا حَصَّلْنَا الْأَصْلَحَ فَالْأَصْلَحَ وَالْأَفْضَلَ فَالْأَفْضَلَ، لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ﴾ [الزمر: ١٧]، وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾ [الزمر: ١٨]، وَقَوْلُهُ: ﴿وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم﴾ [الزمر: ٥٥]، وَقَوْلُهُ: ﴿وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُواْ بِأَحْسَنِهَا﴾ [الأعراف: ١٤٥]، فَإِذَا اسْتَوَتْ مَعَ تَعَذُّرِ الْجَمْعِ تَخَيَّرْنَا، وَقَدْ يَقْرَعُ، وَقَدْ يَخْتَلِفُ فِي التَّسَاوِي وَالتَّفَاوُتِ، وَلَا فَرْقَ فِي ذَلِكَ بَيْنَ الْمَصَالِحِ الْوَاجِبَاتِ وَالْمَنْدُوبَاتِ)[٣].

الدليل الخامس:

مراعاة القواعد الفقهية التي تؤكد هذا التوجه، منها، قاعدة (المشقة تجلب التيسير) وقاعدة (الضرورات تبيح المحظورات) وقاعدة (يغتفر في الابتداء ما لا يغتفر في الدوام)[٤]. فالشرع يتسامح في حال الابتداء بالعمل فيما لا يتجاوز عنه حال الاستمرار فيه، ومحل الاستشهاد بهذه القاعدة هنا: أن هذه القاعدة تتعلق بالمأمورات الشرعية التي قد يشوبها النقص أثناء بداية أدائها، فيغتفر هذا النقص في البداية على أن يتم تداركه فيما بعد.

ومن قواعد الشريعة المهمة اعتبار الظروف الطارئة كالجوائح والنوازل والحروب وتسلط المستعمرين على بلاد المسلمين، وضعف الأمة، وظهور منافقيها على مؤمنيها، وعلى هذا حملت كثير من القواعد الشرعية التي قنّنت للضرورات ورفع الحرج ووضع الجوائح.

ومما لا ينبغي أن يغفل عنه أن التدرج في التطبيق لا يتعارض مع بيان الحكم بشكل صريح وواضح إذا اقتضى الأمر.

(١) مجموع الفتاوى ٦٠/٢٠.
(٢) مجموع الفتاوى ٦٠/٢٠.
(٣) قواعد الأحكام في مصالح الأنام ٦٢/١.
(٤) الأشباه والنظائر للسيوطي ص٨٦.

ثانيًا: التدرج في تطبيق الشريعة ينبغي ألا يكون وسيلة لتخدير الشعوب ولا للاستغلال السياسي

إن مما أساء إلى قاعدة التدرج في التطبيق النماذج السيئة التي أرادت أن تستغل تطبيق الشريعة لمقاصد سياسية ومآرب شخصية، أو لتجاوز مرحلة يتم فيها تزجية الوقت بتخدير الأمة بالشعارات، في حين لا شيء يتحقق في أرض الواقع.

إن الصدق في تطبيق الشريعة له أمارات وعلامات يدركها الواعون المنصفون العقلاء من أبناء الأمة، فهم يستطيعون التمييز بين القول الصادق والادعاء الكاذب، ومن تلكم الأمارات الدالة على الجدية:

١ـ تعديل الدستور بحيث يعبر عن هذه الرغبة بالطريقة المناسبة وبالصيغة الملائمة، ويمكن تقنين ذلك عن طريق تشريع مواد تتناسب مع هذه الغاية، ومن ذلك إزالة كل المواد التي تخالف صراحة قطعيات الشريعة وأحكامها.

٢ـ اختيار البطانة الصالحة التي تدل على الحق والخير وتعين على اتباعهما مع التمكين لها، ومن هؤلاء أهل العلم الذين يبينون خطة التدرج من حيث الأحكام ومراعاة الحال والزمان، وكذلك إبعاد بطانة السوء التي تسعى للفساد والإفساد، فهذا من أكبر الأدلة على جدية الحاكم في الإصلاح، ولكن لو بقيت بطانة السوء فهذا من أكبر المؤشرات على عدم جدية الدعوى.

٣ـ ازدياد وجوه الخير وانحسار وجوه الشر يومًا بعد يوم، ولو كان ذلك بطيئًا، فتصبح القضية مسألة وقت، فسوف يعم الخير ويزداد أهله، وينحسر الشر ويقل أهله، ولا يكون ذلك إلا باستعمال الأصلح فالأصلح في ولايات الناس ووظائفهم العامة.

٤ـ مراعاة الأولويات في حدوث الإصلاح والتغيير، فليس من الأولويات تطبيق الحدود كما فعل البعض، ونجم عن ذلك نفرة من الناس لأنهم لم يتهيؤوا لذلك، فمن أهم الأولويات إصلاح مناهج التعليم ووسائل الإعلام، بحيث يتم تلقين الشريعة الإسلامية بوسطيتها واعتدالها وعدلها، والتركيز على تخلق الناشئة بأخلاق الإسلام ومراعاة آدابه، ومن أهم الأولويات تثبيت العقيدة في قلوب الناس، ويستأنس هذا من القرآن المكي الذي ظل يعالج هذه الموضوعات ثلاث عشرة سنة قبل غيرها، لكن ببساطة الخطاب ونصاعة الاستدلال، ومجتمعاتنا عمومًا اليوم لا تشكو من الإلحاد، لكنها تشكو بالمجمل من ضعف الإيمان، مما تسبب في هجران كثير من الأحكام والآداب الشرعية، وهذا يحتاج من الداعية إلمامًا بواقع المجتمع وفهمًا لعلله وأمراضه، ومن ثم يكون العلاج على وفقه.

٥ـ من الأولويات تأمين البدائل المشروعة لما يأتيه الناس من معاملات غير مشروعة بدعوى الحاجة والضرورة، ولا يكون ذلك إلا بمواكبة الفقه الإسلامي لحاجات الناس ونوازلهم، فالمصارف الإسلامية تمكّن الناس من الاستغناء عن الربا ومصارفه، فلا بد من تقديم النموذج الإسلامي في الاقتصاد والاجتماع.

٦ـ تهيئة الناس لما لم يألفوه من الأحكام وذلك بالبيان المسبق والتعليم والتثقيف وضرب الأمثلة، قال ابن القيم في بيانه لأدب المفتي: (الفائدة السابعة: إذا كان الحكم مستغربًا جدًّا مما لم تألفه النفوس، وإنما ألفت خلافه فينبغي للمفتي أن يوطئ قبله ما كان مأذونًا به كالدليل عليه والمقدمة بين يديه)[١].

٧ـ السماح للدعوة الإسلامية بالقيام بأنشطتها لتوعية الناس وتعليمهم وتقريبهم من هدي دينهم وشرع ربهم، وعدم التضييق على دعاة الخير.

٨ ـ إزالة الشبهات والمعوقات التي يضعها أعداء الشريعة في سبيل تطبيقها، من قبيل حديثهم عن تطبيق الحدود، وحقوق المرأة، والمعاملات المالية، ومفهوم الحرية... إلخ، فيكون هذا من جملة التهيئة.

٩ـ إقرار مبدأ حقوق الإنسان كما أقرته الشريعة الإسلامية وأكدته كثير من المواثيق الدولية، حقوقه في التعبير، وممارسة شعائر دينه، وانتقاد الفساد وفضح المفسدين.

١٠ـ عدم سن قوانين مخالفة صراحة للشريعة الإسلامية

١١ـ تبني قضايا المسلمين في العالم، بحيث يكون الحاكم على الأقل متعاطفًا معها وناصرًا لها بالموقف والكلمة.

تأمين أهم عنصرين للحكم الراشد وهما الكفاية والحماية، ويتلخص ذلك في تأمين الحد الأدنى من متطلبات معيشة الناس، وتأمين الحماية لهم بتحقيق الأمن لهم.

(١) إعلام الموقعين ١٦٣/٤

تطبيق معاصر للتدرج في حل مشكلة الربا

لا يخفى أن النظام الربوي هو أهم أعمدة وأركان النظام الاقتصادي العالمي، ومع ذلك أدركت كثير من الدول خطورته، لكنها لم تستطع الفكاك من أسره، لأسباب عدة منها: عدم طرح البديل المناسب، وعدم وجود تعاون حقيقي بين الدول التي أدركت خطورته للخلاص منه، وعدم وجود خطة تدريجية تنتهي بالخلاص منه بالكلية. وإنّ تغلغُل الربا في معظم النشاطات الاقتصادية والتعاملات البنكية جعل منه ظاهرة معقدة، لا يمكن الخلاص منها إلا بحلول مركبة وليست مفردة، يشد بعضها بحجز بعض، تقوم على التدرج والمرحلية، بحيث تضيق المساحة على المعاملات الربوية يومًا بعد يوم، فمن جملة هذه الحلول المركبة:

١ـ مأسسة الزكاة: بحيث تجمع ممن وجبت عليه جمعًا عادلًا، وتصرف فيمن استحقها ضمن نظام يقوم على الاستيعاب والعدالة في التوزيع، وفق الحكم التي شرعت لأجلها في مسألة تحقيق الكفاية وتأمين مستلزمات الإنتاج لمن يملك الخبرة.

٢ـ إقامة المصارف الإسلامية التي تقوم على القرض الحسن بمساعدة من الدول وأهل اليسار فيها، وتشجيع فكرة الودائع من غير فائدة، وفكرة استثمار الأموال فيها في مشاريع صناعية أو زراعية أو تجارية أو عقارية، بحيث تغطي هذه الأرباح

نفقات هذه المصارف وأجور العاملين فيها، ومن ثم يمكنها من تقديم الأرباح للمودعين فيها.

٣ـ إنشاء الجمعيات التعاونية التكافلية: كالجمعيات الزراعية، والجمعيات السكنية، التي تقوم على مبدأ التعاون، ويكون من مهامها الأساسية إقراض أصحاب الحاجات والضرورات ومن نزلت به الجوائح قرضًا حسنًا، ويضعون لها من النظم ما يضمن شفافيتها والحفاظ على أموالها من العبث والتلاعب، ويمكن استغلال أموالها أيضًا في مشاريع استثمارية.

٤ـ إقامة أقسام خاصة في البنوك تقوم على أساس شرعي غير ربوي على أن تكون خطوة في التحول التدريجي.

٥ـ إنشاء المصرف الإسلامي الدولي: ولاستكمال الحلول لا بد من حل ينظم العلاقات الاقتصادية بين الدول على أساس شرعي بعيد عن الربا، فالإجراءات السابقة يمكنها معالجة الأوجاع الاقتصادية الداخلية. أما القروض الخارجية، والتبادل التجاري، وحركة التصدير والاستيراد، والضمانات المالية، وما تقتضيه من حاجة إلى الإيداع والاقتراض؛ فلا بد لها من تأسيس مصرف دولي تغطي فروعه الدول الجادة في إيجاد البديل عن النظام الربوي. فهي مسؤولية تضامنية لا يمكن أن تنهض بأعبائها دولة واحدة أو دولتان، بل لا بد من مجموعة دول، لا سيما تلك التي تملك الموارد والثروات والعوائد المالية الكبيرة المستودعة في المصارف، ويرافق ذلك المشاريع الاستثمارية المشتركة، والمناطق الحرة للتبادل التجاري وفتح الأسواق، ويمكن للجماهير الإسلامية في هذه الدول أن تنشئ صندوقًا لدعم هذا المصرف ـ (دولارا) في كل شهر مثلًا ـ وهناك سبل أخرى لدعم المشروع، كما توجد طرق أخرى للتخلص من آفة الربا نهائيًا.

خاتمة:

يجب أن نأخذ بعين الاعتبار الظروف الدولية والضغوط التي تمارسها الدول بمؤسساتها على الدول المستضعفة، بحيث تمنعها من الأخذ بمقومات الإصلاح والنهوض والتقدم، بحيث تتمكن من التفلت شيئًا فشيئًا من التبعية الاقتصادية والثقافية، وهذا يجعلنا نلتمس العذر في بعض الأحيان في وجود جوانب القصور، وذلك لعدم التمكن من تحقيق كل برامج الإصلاح ومحاربة الفساد، وكذلك تقدير البعض أن الاستعجال في ذلك سيكون سببًا في إجهاض مشاريع الإصلاح قبل أن تقوم على قدم وساق من قبل الجهات المتربصة من دول ومنظمات، ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ ٱلۡمُفۡسِدَ مِنَ ٱلۡمُصۡلِحِ﴾ [البقرة: ٢٢٠].

كما يجب تحديد مقومات التدرج، كتوصيف واقع المجتمعات وتشخيص أمراضها ومشاكلها، وكذلك ترتيب سلم الأوليات، وتحديد برامج الإصلاح في كل مجتمع، فهو من مهام أهل الذكر وعلى رأسهم العلماء، ولا يمكن أن يقوم بذلك فرد أو أفراد، بل لا بد أن يكون للعلماء مؤسسة جامعة تحدد كل مقومات التدرج ومراحله، ثم يقومون بنقل هذه المشاريع من حيز التصور إلى واقع التنفيذ ومتابعته.

فلسفة الإسلام في الصراحة

أ. د. حسن الخطاف . أستاذ المنطق في كلية الشريعة والدراسات الإسلامية بجامعة قطر

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

ملخَّص الدِّراسة

تأتي أهمية الحديث عن الصراحة كقيمة عليا من القيم الأخلاقية الاجتماعية التي ينبغي أنْ يتحلّى بها الإنسان أيًّا كان معتقده، وتزداد منزلة هذه القيمة عندما يكون صاحبها مسلمًا، فبها يكون واضحًا جليًّا في باطنه وظاهره، وقد أدّى تصارع المصالح والارتماء في أحضان الاستهلاك والتوسُّع فيه إلى تراجع هذه القيمة، بل وغيابها مع أنَّ الدِّين الإسلامي عقيدة وفروعا يقوم عليها.

نظرًا إلى ما سبق جاءت الدِّراسة تأكيدًا على أهميتها العقدية والأخلاقية والاجتماعية، وقد قامت هذه الدِّراسة على الاستقراء الجزئي لنصوص القرآن الكريم والسنة النبوية ومواقف الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ من هذه القيمة.

الكلمات المفتاحية

الصراحة، الفلسفة، المصلحة، الحياة الاجتماعية، النفاق.

التعريف اللغوي والاصطلاحي

يرجع مفهوم الصراحة لغويًّا إلى حروف الصاد والراء والحاء، فإذا اجتمعت هذه الحروف في لسان العرب فإنها تدل على معنيين:

ـ الأول: ظهور الشيء وبروزه، من ذلك قولهم هذا شيء صريح يعني بارز وواضح.

ـ والمعنى الثاني: هو الخالص من كل شيء اختلط به، فالصريح من اللبن هو الذي تميز عن الغش ولم يختلط به رغوة أو ماء.

فالمعنى المحوري للصراحة هو انكشاف الشيء وظهوره قويًّا واضحًا لخلوصه مما يغشاه، كالصرح الموصوف لا تحجبه أبنية حوله لطوله في السماء، واللبن الصريح هو الذاهب الرغوة، والصرح هو البناء الطويل في السماء قال الله تعالى حكاية عن طلب فرعون من هامان: ﴿يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِي صَرْحًا﴾ [غافر: ٣٦] يعني بناء عاليًا[١].

فالظهور والبروز، والمعنى الآخر عدم

(١) انظر: أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، مقاييس اللغة، المحقق: عبد السلام محمد هارون، الناشر: دار الفكر، عام النشر: ١٣٩٩هـ ـ ١٩٧٩م، الصاد والراء والحاء، علي بن إسماعيل بن سيده المرسي، المحقق: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية ـ بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢١ هـ ـ ٢٠٠٠ م، مادة صرح، محمد حسن حسن جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل لألفاظ القرآن الكريم، الناشر: مكتبة الآداب ـ القاهرة، الطبعة: الأولى، ٢٠١٠ م. مادة صَرَحَ.

الاختلاط؛ متقاربان وموجودان في الكلام الصريح، أوّلًا لوضوحه وبروزه، وثانيًا لعدم تداخله بغيره من التِواء أو نفاق.

فالصراحة في القول هي: قول الحقيقة كما هي، ورؤية الأمور على طبيعتها بعيدًا عن المبالغة في إظهار الشي وتضخيمه أو في ستره وكتمانه. وهذا المعنى قريب من معنى النصح، لأنّ من معاني النصح أو النصيحة في اللغة الشيء الخالص الذي لم يخالطه شيء[١]، وهذا المعنى هو ذاته معنى الصراحة، والنصيحة هي: (تنبيه للمخاطب إلى ما ينفعه ويدفع عنه الضر، وضده الغش)[٢].

وتعريف الصريح عند الأصوليين لا يخرج عن هذا المعنى ؛ إذ هو: (كل لفظ مكشوف المعنى والمراد، حقيقة كان أو مجازًا يقال فلان صرح بكذا أي أظهر ما في قلبه لغيره من محبوب أو مكروه)[٣].

الصراحة في القرآن الكريم

لم ترد كلمة الصراحة في القرآن الكريم بهذا اللفظ ولكن ورد ما يدل عليها في نصوص كثيرة، منها الصراحة في بيان العقيدة والأحكام، والتعامل مع اليهود والنصارى والمشركين وفي بيان عقائدهم، وكذلك الآيات التي فيها عتاب لطيف من الله تعالى لنبيه محمدٍ ﷺ، ومما يؤسف له أنّ بعضنا يتأذى أحيانًا من الآخرين ولا يصرح لهم، وهذا ليس صحيحًا، فلنجعل من القرآن قدوة لنا في تعليمنا الصراحة عندما يقتضي الموقف ذلك، وحسبنا من القرآن الكريم فيما يتعلق بهذه المسألة ـ التي لها بُعد اجتماعي واضح ـ قوله تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤۡذَنَ لَكُمۡ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيۡرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنۡ إِذَا دُعِيتُمۡ فَٱدۡخُلُواْ فَإِذَا طَعِمۡتُمۡ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسۡتَـٔۡنِسِينَ لِحَدِيثٍۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ يُؤۡذِي ٱلنَّبِيَّ فَيَسۡتَحۡيِۦ مِنكُمۡۖ وَٱللَّهُ لَا يَسۡتَحۡيِۦ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ﴾ [الأحزاب: ٥٣]، إذ نلحظ في هذه الآية خطابًا صريحًا لا مجاملة فيه.

من أسباب نزول هذه الآية أنه لما تزوج رسول الله ﷺ زينب ابنة جحش صنع طعامًا بخبز ولحم ودعا القوم فطعموا ثم جلسوا يتحدثون وإذا هو كأنه يتهيأ للقيام فلم يقوموا، فلمّا شعر بعضهم بأن النبي يريد منهم القيام ولكن استحى وظهرت علامات على ذلك قام بعضهم وبقي البعض جالسًا، فأخذ النبي يدخل ثم يخرج إيماء لهم بالخروج من غير تصريح فنزلت الآيات تأديبًا وتعليمًا لهم[٤].

ولنلحظ قوله سبحانه وتعالى: ﴿غَيۡرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنۡ إِذَا دُعِيتُمۡ فَٱدۡخُلُواْ فَإِذَا طَعِمۡتُمۡ فَٱنتَشِرُواْ﴾ والمعنى: لا تحضروا البيوت للطعام قبل تهيئة الطعام للتناول، فتقعدوا تنتظرون نضجه إلا إنْ أذِن لكم، فإن أذن لكم فادخلوا فإذا أكلتم فلا حاجة لبقائكم وجلوسكم بعد الطعام لأنّ

(١) مقاييس اللغة، مادة نَصَحَ.
(٢) محمد الطاهر ابن عاشور، الناشر: الدار التونسية للنشر ـ تونس، سنة النشر: ١٩٨٤ هـ، ٨/ ٩٤.
(٣) السرخسي، محمد بن أحمد السرخسي، دار المعرفة ـ بيروت، ١/ ١٨٧.
(٤) انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ٢٢/ ٨١.

النبي يكون مشغولًا وعنده ظروفه الخاصة، وهذه الحال بالنسبة لمجتمعاتنا تتقيد بالعرف، فقد يقتضي العرف ألا يجلس أو يجلس قليلًا، وبجميع الأحوال لا ينبغي أن نثقل على صاحب البيت.

وهذا خُلُقٌ عالٍ يتعين علينا أن نتربى عليه، فكثيرا ما تجد اليوم من بعض الناس إذا دخل بيت غيره لطعامٍ أو زيارة مريض؛ ينسى نفسه فيطيل الجلوس حتى يثقل على صاحب البيت، وهو لا يشعر.

> حياة النبي ﷺ مملوءة بالوضوح والصراحة في علاقاته مع غيره وفي كلامه وأحكامه

الصراحة في السنة النبوية

عاش النبي عليه الصلاة والسلام حياة مملوءة بالوضوح والصراحة في علاقاته مع غيره وفي كلامه وأحكامه، من ذلك أنه جاءت قُرَيْشٌ إِلَى أَبِي طَالِبٍ، فَقَالُوا: (يَا أَبَا طَالِبٍ! إِنَّ ابْنَ أَخِيكَ يُؤْذِينَا فِي نَادِينَا، وَفِي مَسْجِدِنَا، فَانْهَهُ عَنْ أَذَانَا)، فَقَالَ: يَا عَقِيلُ! (ائْتِنِي بِمُحَمَّدٍ) فَذَهَبْتُ فَأَتَيْتُهُ بِهِ، فَقَالَ: (يَا ابْنَ أَخِي! إِنَّ بَنِي عَمِّكَ يَزْعُمُونَ أَنَّكَ تُؤْذِيهِمْ، فَانْتَهِ عَنْ ذَلِكَ)، قَالَ: فَحَلَّقَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَصَرَهُ إِلَى السَّمَاءِ. فَقَالَ: «أَتَرَوْنَ هَذِهِ الشَّمْسَ؟» قَالُوا: (نَعَمْ). قَالَ: «مَا أَنَا بِأَقْدَرَ عَلَى أَنْ أَدَعَ لَكُمْ ذَلِكَ مِنْ أَنْ تُشْعِلُوا مِنْهَا شُعْلَةً»، قَالَ: فَقَالَ أَبُو طَالِبٍ: (مَا كَذَبَنَا ابْنُ أَخِي. فَارْجِعُوا)[1]، صراحة واضحة لا تعرف المجاملة أو الخوف.

ولكن إذا لم تكن هناك حاجة إلى الصراحة فلا داعي للفضيحة، يعني إذا كان الطرف الآخر يفهم عليك وكان المقصد أنْ ينتفع الناس فلا حاجة للتخصيص والتشهير بين الناس فإنه أذى، وهذا منهج سار عليه النبي عليه الصلاة والسلام فكثيرا ما كان يقول: «مَا بَالُ أَقْوَامٍ يَشْتَرِطُونَ شُرُوطًا، لَيْسَت فِي كِتَابِ اللَّهِ»[2]، أو «مَا بَالُ أَقْوَامٍ يَرْفَعُونَ أَبْصَارَهُمْ إِلَى السَّمَاءِ فِي صَلاَتِهِمْ»[3]، و«مَا بَالُ أَقْوَامٍ يَتَنَزَّهُونَ عَنِ الشَّيْءِ أَصْنَعُهُ، فَوَاللَّهِ إِنِّي لَأَعْلَمُهُمْ بِاللَّهِ، وَأَشَدُّهُمْ لَهُ خَشْيَةً»[4].

لماذا لم يصرح النبي بالأسماء هنا؟ لأنّ ذات الشخص لا تعنيه، فالمسألة ليست تحاكما بين طرفين، وليس فيها ادِّعاء أو شكاية من طرف على طرف آخر، بل المقصود بيان الحكم. فالتصريح

(١) رواه ابن حجر العسقلاني وقال: «هذا إسناد حسن» ابن حجر العسقلاني، المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية، دار العاصمة، دار الغيث ـ السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤١٩هـ، ١٧/ ٢٥١، وقد أورد الشيخ الألباني هذا الحديث فقال معلقا: «قلت: وهذا إسناد حسن» الألباني، محمد ناصر الدين، سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها، الناشر: مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة: الأولى، ١/ ١٩٥.

(٢) محمد بن إسماعيل البخاري، صحيح البخاري، كتاب الصلاة، باب ذكر البيع والشراء على المنبر في المسجد، رقم: ٤٥٦.

(٣) صحيح البخاري، كتاب الأذان، باب ذكر البيع والشراء على المنبر في المسجد، رقم: ٧٥٠.

(٤) صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب من لم يواجه الناس بالعتاب، رقم: ٦١٠١

يكون فضيحة للشخص المرتكب؛ إذ ربّما يحمله ذلك على عدم قبول النصح، أو ارتكاب ما هو أشدّ من ذلك، فينبغي لمن ينهى عن المنكر أن يسلك مسلك الستر ما أمكن، فإن ذلك أدعى لقبول قوله، والانتفاع بإرشاده، فكثير ممن يتصدّى للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يسلكون هذا المسلك، فيُفسدون أكثر مما يُصلحون، وقد قال الله تعالى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ ﴾ [النحل: ١٢٥](١).

الصراحة منهج الصحابة رضوان الله عليهم رجالا ونساء

لقد ربّى النبي ﷺ أصحابه على الصراحة إلى حدّ الجُرأة وقد كان هذا واضحًا عند جميع الصحابة، وخاصّة عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، حيث لم يدع في نفسه شيئًا إلا وأظهره وهذه شجاعة قلّما توجد في أحد، وكان أكثر ما أظهرها على المنافقين، فمن ذلك مواقفه من عبد الله بني أبي بن سلول وكان زعيمًا للمنافقين وخاصة يوم موته، قال عمر: (دُعِيَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِيُصَلِّيَ عَلَيْهِ، فَلَمَّا قَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَثَبْتُ إِلَيْهِ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَتُصَلِّي عَلَى ابْنِ أُبَيٍّ وَقَدْ قَالَ يَوْمَ كَذَا وَكَذَا: كَذَا وَكَذَا؟ أُعَدِّدُ عَلَيْهِ قَوْلَهُ، فَتَبَسَّمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَقَالَ: «أَخِّرْ عَنِّي يَا عُمَرُ» فَلَمَّا أَكْثَرْتُ عَلَيْهِ، قَالَ: «إِنِّي خُيِّرْتُ فَاخْتَرْتُ... قَالَ: فَصَلَّى عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ثُمَّ انْصَرَفَ، فَلَمْ يَمْكُثْ إِلَّا يَسِيرًا، حَتَّى نَزَلَتِ الآيَتَانِ مِنْ بَرَاءَةَ: ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا ﴾ [التوبة: ٨٤] إِلَى قَوْلِهِ ﴿وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾ [التوبة: ٨٤] قَالَ: فَعَجِبْتُ بَعْدُ مِنْ جُرْأَتِي عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَوْمَئِذٍ، وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ)(٢).

فمع يقين عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ المطلق بصواب رأي النبي عليه الصلاة والسلام فيما يفعل، وأنه إنْ لم يوفَّق للصواب صحّح الوحي له توجهه، لم يتردد في إظهار ما في خاطره.

وعادة تكون المرأة أقلّ جرأة من الرجل لِما جُبلت عليه من رقّة وغلبة حياء، لقلة المخالطة المطلوبة شرعًا إلا في حالات الضرورة، ومع هذا نرى عند الصحابيات الجليلات حالات من الصرَّاحة غير المعهودة في واقعنا، من ذلك أنه (جاءت امرأة رفاعة القرظي النبي ﷺ، فقالت: كنت عند رفاعة، فطلقني، فأبتَّ طلاقي، فتزوجت عبد الرحمن بن الزبير، وإنما معه مثل هدبة الثوب، فقال: «أتريدين أن ترجعي إلى رفاعة؟ لا، حتى تذوقي عسيلته ويذوق عسيلتك»(٣). ولنقف على قولها (مثل الهدبة) أي كالهدبة ضعفًا واسترخاء، أرادت بذلك الضعف الجنسي الذي كان عنده، وهي بذلك تشير إلى أنَّ الاستمتاع هو حقٌّ من حقوقها، والمرأة عادة لا تقول مثل هذا الكلام إلا في مجتمع سليم نظيف اعتاد الصراحة لا يحمل

(١) محمد بن علي بن آدم بن موسى الإتيوبي الولوي، البحر المحيط الثجاج في شرح صحيح الإمام مسلم بن الحجاج، الناشر: دار ابن الجوزي الطبعة: الأولى، ١٠/ ٢١٤.

(٢) صحيح البخاري، كتاب الجنائز، باب ما يكره من الصلاة على المنافقين، والاستغفار للمشركين، رقم: ٣٦٦.

(٣) صحيح البخاري، كتاب الشهادات، باب شهادة المختبي، رقم: ٢٦٣٨.

كلامها الصريح على غير محمله، فلو أنَّ هذه المرأة كانت في بعض مجتمعاتنا المسلمة لاتُّهمت من قِبَل البعض من رجالٍ أو نساء بقلة الحياء ولَصَار حديثها على الألسن. فهي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا تعلم ما تقول وتقصده.

وكلُّ هذا مرتبط بالصدق في القول وعدم الافتراء وكثيرا ما نسمع في مجتمعاتنا ـ وخاصَّة في دوائر القضاء ـ حينما يكون هناك فراق بين الزوجين؛ افتراءات عجيبة بين الطرفين قد تصل أحيانا إلى اتِّهام المرأة بعرضها قصد التَّخلُّص منها والوصول إلى كامل المهر الذي دفعه الزوج.

ليست هذه الحالة الوحيدة التي كانت سائدة في مجتمع النبي الذي علَّم أصحابه على النقاء والطهر والصراحة، إذ كانت المرأة تأتي إلى النبي تسأله عن تفاصيل دقيقة متعلقة بالحيض، أو ما تراه في منامها، وفي هذا تقول السيدة عائشة رضوان الله عليها: (رَحِمَ اللَّهُ نِسَاءَ الْأَنْصَارِ لَمْ يَمْنَعْهُنَّ الْحَيَاءُ أَنْ يَسْأَلْنَ عَنْ أَمْرِ دِينِهِنَّ)[1].

بالبناء على ما سبق نرى أنه من الواجب علينا أنْ نعلِّم أنفسنا الصراحة ونعتاد قبولها من الناس، وقد رأيتُ في بعض مجتمعاتنا شيئا من الغمز بمن يُصرِّح أو يُفهم منه ذلك عندما تخالف صراحته اختياراتنا وآراءنا، ومن ذلك موقف المجتمع من المرأة التي تُوفي عنها زوجها وترغب بالزواج، فالبعض في مجتمعاتنا وخاصة من أقرباء الأرملة، يرى بأنَّ عليها ألا تتزوج أو تومئ بذلك. وكأنَّ عليها أنْ تموت وتُميت مشاعرها وغرائزها مع موت زوجها، وستجد هذا الأمر غريبا كُلَّ الغرابة عندما تُقارن نظرة المجتمع إلى الأرملة؛ بحال الرجل الأرمل الذي تُتَوفَّى امرأته، فلا تمضي بضعة أيام حتى تجد من أقاربه من يخطب له، ولم يجفَّ بعد التراب فوق قبرها، وهذا الذي يخطب له قد يعتقد أن من العار أنْ تتزوج أخته أو قريبته بعد بضع سنوات من وفاة زوجها.

الباعث على الصراحة

ثمة أسباب تدفعنا لمصارحة الآخرين، ومن هذه الأسباب.

١.النصيحة: فعندما ترى صديقك أو أحد معارفك قد أخطأ، فالمطلوب منك أنْ تكون صريحا معه، والصديق من صارح صديقه ولم يتماشى معه، وهذا خلق عظيم لا ينبغي أنْ يغيب عنّا، فعندما نتصادق ينبغي أنْ نكون صُرَحاء فيما بيننا، فالصداقة تقتضي الصراحة لأنّها دليل المحبة، والمؤمن مرآة لأخيه.

٢. قول الحق: إذا كان الأمر متعلقا بدعوة أو قضاء أو تخاصم وطُلبت شهادتك، سواء أكان أمام عدوك أو قريبك أو صديقك فإن الأمر يحتاج إلى صراحة وعدم استخدام الكنايات والألفاظ الموهمة المشكلة، يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ [الأنعام: ١٥٢]، وقد جاء في الصحيح أنّ الغامدية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: (يا

(١) ابن عبد البر بن عاصم النمري القرطبي، تحقيق: أبي الأشبال الزهيري، جامع بيان العلم وفضله، الناشر: دار ابن الجوزي، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤١٤ هـ ـ ١٩٩٤ م، ص٣٧٣.

رسول الله، إني قد زنيت فطهرني)[١].

٣.الاستفتاء: يحدث في أيامنا هذه أنّ بعض الأشخاص يطلق زوجته، ولا ينقل الصورة الحقيقية في كيفية حصول الطلاق، وما الأسباب؟ وكيف تلفَّظ وكم عدد الطلقات؟ ويوهم المفتي بأنّه كان شبه مجنون ليجد فتوى تناسبه وتُرد له الزوجة، وهو في زعمه هذا يتصور أنه يخدع المفتي وما علم أنَّ الفتوى تكون على حسب السؤال وأنَّ الفتوى لا تحلُّ حراما ولا تحرم حلالا.

٤. المشورة: عندما يستشيرنا أحد ينبغي أنْ نظهر له ما في أنفسنا وأنْ نكون صريحين معه، ولو كان هذا يزعجه أو يغضبه وهذا أصل أخلاقي عظيم، وإلا كان النفاق، ولهذا كان النبي ﷺ يقول: «أشيروا عليَّ أيها الناس»، وكان الصحابي يعرض رأيه من غير مجاملة، بل كان بعض الصحابة يعرض ما يعتقد من صواب حتى قبل أن يُسأل ذلك.

ومن شواهد ذلك اقتراح الْحُبَابَ بْنَ الْمُنْذِرِ تغيير مكان المعركة يوم بدر، فقد أخذ به النبي ﷺ مصرحا أن المسألة ليست تشريعا[٢]، ومنه ما وقع عندما همّ النبي عليه الصلاة والسلام مصالحة غطفان، فقد عرض عليهم ثُلُث تمر المدينة، وطالبوا بالنصف فأبى رسول الله ﷺ أن يزيد على الثلث، وقبلوا ذلك، فأقبل أسيد بن حضير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى رسول الله عليه السلام فقال: يا رسول الله إن كان أمرًا من السماء فامض له، وإنْ كان غير ذلك فوالله لا نعطيهم إلا السيف، فقال رسول الله ﷺ: «بل شيء أصنعه لكم»[٣].

٥. بناء حياة جديدة

قد تجد بعض الناس لديه مشكلة مع الطرف الآخر كالصديق مع صديقه، أو التاجر مع من يتاجر معه أو الزوج مع زوجه، فالسكوت ليس حلا بل قد تتفاقم الأمور بسبب عدم التصريح بالمشكلة لأنّ في ذلك استمرارا لما قد يؤثر في التواصل في الحياة، فتصوَّر لو أنَّ رجلا يشكُّ بزوجته أو هي تشك بزوجها أو التاجر يخوِّن شركاءه في العمل، فليس الحلُّ السكوت بل إظهار ما في النفس ولعل ما في النفس عبارة عن أوهام تنزاح، وبقاؤها يشكِّل عقبة في العلاقات وربما عدم الصراحة يجعل بعضهم يشكُّ في بعض وقد يؤدي هذا إلى التجسس والاتهام من غير دليل، فالحلُّ في هذا أنْ نكشف عمّا في قلوبنا لمن نحبُّ من أقربائنا وأصدقائنا حتى تستمر الحياة، ويمكن بعدها بناء حياة جديدة أو شراكة جديدة مبنية على الوضوح، والأمثلة على هذا

(١) مسلم، صحيح مسلم، محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي ـ بيروت، كتاب الحدود، باب من اعترف على نفسه بالزنى، رقم: ١٦٩٥.

(٢) انظر: عبد الملك بن هشام، سيرة ابن هشام، تحقيق: مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ الشلبي، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، الطبعة: الثانية، ١٣٧٥هـ ١٩٥٥م، ٦٢٠/١، صفي الرحمن المباركفوري، الرحيق المختوم، دار الهلال ـ بيروت، الطبعة: الأولى، ص١٩١.

(٣) انظر: محمد بن يوسف الصالحي الشامي سبل الهدى والرشاد، في سيرة خير العباد، تحقيق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، الشيخ علي محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٩٩٣ م، ٣٧٦/٤.

كثيرة، من ذلك (أَنَّ امْرَأَةَ ثَابِتِ بْنِ قَيْسٍ أَتَتِ النَّبِيَّ ﷺ، فَقَالَتْ: (يَا رَسُولَ اللَّهِ، ثَابِتُ بْنُ قَيْسٍ، مَا أَعْتِبُ عَلَيْهِ فِي خُلُقٍ وَلاَ دِينٍ، وَلَكِنِّي أَكْرَهُ الكُفْرَ فِي الإِسْلاَمِ)، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَتَرُدِّينَ عَلَيْهِ حَدِيقَتَهُ؟» قَالَتْ: (نَعَمْ)، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «اقْبَلِ الحَدِيقَةَ وَطَلِّقْهَا تَطْلِيقَةً»[١].

فليس هناك حلٌّ آخر غير الصراحة، فمن غير الصراحة ستصبح الحياة جحيما وربما يؤدي ذلك في بعض المجتمعات إلى الخيانات الزوجية.

> الصراحة ليست مستحبة دائمًا على إطلاقها فقد لا تكون هناك حاجة للتصريح، بل ولا للتلميح

أسس فلسفة الإسلام في الصراحة

عندما نتأمل الصراحة من جميع جوانبها نجد أنَّها ليست مستحبة دائما على إطلاقها فقد لا تكون هناك حاجة للتصريح، بل ولا للتلميح، كمن يريد الحديث عن شيء لا يعنيه، وقد يكون هناك احتياج للحديث في مسألة من المسائل ولكنَّ الإيماء كافٍ كما لو كان الحديث بين أشخاصٍ فهموا على المتكلم ولم يترتب على التصريح حكمٌ قضائي.

وعندما ننظر إلى الصراحة من جميع جوانبها نجد أن فلسفة الإسلام في الصراحة تقوم على أسس عدة من أبرزها:

١ـ الإحسان

ونعني به في هذا المقام مراقبة الإنسان لربه، وهذه المراقبة لا تكتمل ما لم يشعر المرء أنه عبد لله تعالى، وبذلك يكون كلامه تصريحا أو تلميحا أو سكوتا متماشيا مع المصلحة المتوخاة من ذلك.

٢ ـ جلب المصلحة

نقصد بالمصلحة هنا هي المصلحة التي اعتبارها الشارع وحددها وقام بضبطها، وهذه المصلحة سواء أكانت شخصية أو غيرية، فإذا تجلّت المصلحة من المصارحة فإنَّ الصراحة تكون هي الأولى للوصول إلى الحق، وكلُّ ذلك مرهون بعدم التنازل عن الحق الشخصي أو حقَّ الآخرين، مع ملاحظة أنَّ حقَّ الآخرين من النصح لا يمكن التنازل عنه لأنه متعلق بالآخرين، والأمثلة التي يمكن استحضارها في الصراحة للوصول إلى الحق الشخصي كثيرة ومنثورة في كُتُب الفقه، وهي في الحقيقة تقوم على نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية والقواعد العامة في الشريعة، ومن الأحاديث التي يمكن الاستناد إليها قول هند زوج أبي سفيان للنبي عليه الصلاة والسلام: (إن أبا سفيان رجل شحيح، فهل علي جناح أن آخذ من ماله سرا؟) قال: «خذي أنت وبنوك ما يكفيك بالمعروف»[٢]. فالنبي لم ينهها

(١) صحيح البخاري، كتاب الطلاق، باب الخلع وكيف الطلاق فيه، رقم: ٥٢٧٣.

(٢) البخاري، صحيح البخاري، باب من أجرى أمر الأمصار على ما يتعارفون بينهم: في البيوع والإجارة والمكيال

مع صراحتها، والأصرح من هذا ما ذكرناه سابقا في حديث رفاعة.

وقد تكون المصلحة مرتبطة بجلب النفع للآخرين ودفع الضرر عنهم، والشريعة قامت على جلب المصالح ودفع المفاسد في الدنيا والآخرة، ولأجل هذا أبيحت الصراحة، ولم يَعُد الحديث عن الآخرين غيبة، وقد رأينا النبي عليه الصلاة والسلام يستمع ويحكم لهند مع أنها ذكرته بشرٍّ وهو الشح، والمستثنيات من الغيبة كلها فيها صراحة لكنها تحقّق مصلحة شخصية أو غيرية أو شرعية كجرح الرواة وذكْر كذبهم[١].

٣ـ مراعاة آداب المروءة والحشمة

تتنوع الصراحة بحسب الموضوع الذي يتم الحديث عنه، خاصة في بعض أنواع الصراحة التي لا تتعلق بالحقوق الشخصية، كما يمكن أحيانا الاستغناء عن الصراحة بالتلميح، أو يكتفى باختيار ألفاظٍ أبعد عن الفُحش، ولعلنا نفهم هذا من قول النبي عليه الصلاة والسلام: «إن من أشر الناس عند الله منزلة يوم القيامة، الرجل يفضي إلى امرأته، وتفضي إليه، ثم ينشر سرها»[٢].

ودلالة التحريم واضحة في الحديث، ما لم تكن هناك حاجة ماسة تدعو إلى ما ذُكر، فإذا خلا الأمر من الحاجة الداعية فأقلها أنه مكروه؛ (لأنه خلاف المروءة)[٣]، ولنلحظ إلى علوِّ ألفاظ النبي ﷺ وبُعدها عن خدش الحياء باستخدام لفظ «الإفضاء» وهذا يذكرنا بقوله تعالى ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا۟ مِنْهُ شَيْـًٔا أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ [النساء: ٢٠، ٢١]، والإفضاء في هذه الآية هو الجماع ولكنَّ الله تعالى كريم يكني[٤]، تعليما لنا في اختيار الألفاظ الموصلة للمعنى المُراد.

يقول النووي: (ومما يُنهى عنه؛ الفحشُ وبذاءةُ اللسان، والأحاديثُ الصحيحة فيه كثيرة معروفة)، ومعناه: التعبيرُ عن الأمور المستقبحة بعبارة صريحة، وإن كانتْ صحيحةً والمتكلّمُ بها صادق، ويقعُ ذلك كثيرًا في ألفاظ الوقاع ونحوها.

وينبغي أن يستعملَ في ذلك الكنايات، ويعبّر عنها بعبارة جميلة يُفهم بها الغرضُ، وبهذا جاءَ القرآن العزيز والسنة الصحيحة المكرّمة، قال الله تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٧] وقال تعالى: ﴿وَكَيْفَ

والوزن، وسننهم على نياتهم ومذاهبهم المشهورة، رقم: ٢٢١١.

(١) انظر فيما يُباح من الغيبة، النووي، رياض الصالحين، تعليق وتحقيق: الدكتور ماهر ياسين الفحل دار ابن كثير للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق ـ بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢٨ هـ ـ ٢٠٠٧ م، ص ٤٢٤.

(٢) مسلم، صحيح مسلم، كتاب النكاح، باب تحريم إفشاء سر المرأة، رقم: ١٤٣٧.

(٣) النووي، يحي بن شرف النووي، دار إحياء التراث العربي ـ بيروت، الطبعة: الثانية، ١٣٩٢، ١٠/ ٨.

(٤) انظر: القرطبي، محمد بن أحمد، تفسير القرطبي، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، الناشر: دار الكتب المصرية ـ القاهرة، الطبعة: الثانية، ١٣٨٤هـ ـ ١٩٦٤ م، ٥/ ١٠٢.

تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ [النساء: ٢١].

وقال تعالى: ﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ﴾ [البقرة: ٢٣٧] والآيات والأحاديث الصحيحة في ذلك كثيرة.

قال العلماء: (فينبغي أن يستعملَ في هذا وما أشبهَه من العبارات التي يُستحيى من ذكرها بصريح اسمها؛ الكنايات المفهمة، فيُكنّي عن جماع المرأة بالإفضاءِ والدخولِ، والمعاشرةِ والوِقاع ونحوها... وكذلك يُكنّي عن البول والتغوّط بقضاء الحاجة، والذهاب إلى الخلاء، ولا يصرّحُ بالخِرَاءة والبول ونحوهما... واعلم أن هذا كلَّه إذا لم تدعُ حاجةٌ إلى التصريح بصريح اسمه، فإن دعتْ حاجةٌ لغرض البيان والتعليم، وخِيفَ أن المخاطَب لا يفهم المجاز، أو يفهمُ غيرَ المراد، صرّح حينئذ باسمه الصريح ليحصلَ الإفهامُ الحقيقي، وعلى هذا يحمل ما جاء في الأحاديث من التصريح بمثل هذا، فإن ذلك محمول على الحاجة كما ذكرنا، فإن تحصيل الإفهامُ في هذا أولى من مراعاة مجرّد الأدب)[1].

٤ـ إقامة النظام الاجتماعي الإسلامي على الوضوح

هذا مقصد مهم جدا ينبغي أنْ يُلحظ عند الحديث عن الصراحة، فالصراحة قد تكون مُغضِبة في بداياتها، ولكنَّها حتى عند من يتضرر بها أكثر قبولا من الوجه الآخر المتمثل بالالتواء والغموض، فليس هناك في المواقف التي تحتاج إلى صراحة من بديل عنها، والبديل قد يصل إلى مرحلة الكذب والنفاق، وهما الوجه الآخر للكتمان وتغيير الحقائق، وأكثر خصلة عابها ربنا سبحانه وتعالى على المنافقين هي الغموض العقدي والعملي، فما يخبئه القلب من نفاق نقيض للصراحة العقدية، وما يتلفظ به اللسان من نفاق وكذب ضد الصراحة العملية.

تريد الشريعة من المرء أنْ يكون واضحًا، ولذا فإن الصَّراحة لا تصدر إلا من نفوس كبيرة، فليس الخطأ أن تكون صريحا وتعترف بالخطأ، فالاعتراف بالخطأ فضيلة ولا يحصل عادة من النفوس الضعيفة المهزومة، من ذلك مثلا ما يحدث أحيانًا بين الشركاء في التجارة أو بين الزوجين من اعتراف أحدهما بالخطأ اتِّجاه الآخر، كأنْ يُطلقها لأنه يريد أن يتزوج عليها، ولها عليه دين مؤخر، فمن الرجولة والصراحة أنْ يعترف أنَّها ما كانت مخطئة؛ لأنَّ بعض الرجال بقصد إكراهها على إسقاط المهر المؤخر قد يفتري على عِرضها تهما باطلة، فالاعتراف فضيلة وهذه لا يقوم بها إلا كبار القوم وعليّتهم.

وإذا كانت الصراحة مطلوبة وفق المصلحة فلا ينبغي الخلط بينها وبين المدارة والمداهنة.

الصراحة أنْ نكون واضحين في كلامنا وأفعالنا من غير مجاملة ولكنْ بطريقة مهذبة ومن غير وقاحة كما سبق، فهي تدلُّ على المحبة أو النصيحة وتخرج من قلب سليم نظيف اتِّجاه الآخرين، والصراحة محبوبة وممدوحة، وقد سبق

(١) يحيى بن شرف النووي، الأذكار، تحقيق: عبد القادر الأرنؤوط رحمه الله، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت ـ لبنان، ص٣٧٥.

بيان ذلك، أمَّا المداراة فهي المجاملة والسكوت عن بعض الأشياء طمعا في الاقتراب من الشخص أو مراعاة لمصلحة ما له، أو طمعا في إسلامه، فليس في المداراة موافقة له، بل فيها السكوت الظاهري والموافقة الظاهرية طمعا في مصلحة أكبر منها، وهذا ما أمر الله به نبييه موسى وهارون بمخاطبة فرعون باللين، قال تعالى: ﴿اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه: ٤٣، ٤٤]، فالطمع بصلاح شخص مقابل اللين في الكلام أمر مطلوب، وكذا إذا كنَّا نخشى شر شخص ما فيمكن أنْ ندارِه اتِّقاءً لشره.

الصَّراحة والثورة السورية

لا نعلم اجتماع الدَّجل والكذب والنفاق في مرحلة من مراحل التاريخ كما اجتمع ضدَّ الشعوب العربية المطالبة بحريتها من عبودِّية حُكَّامها في دول الربيع العربي وخاصة في سورية، حيث تآلب الإعلام والمال والنفاق والإفتاء والتزوير... للوقوف أمام الثورة السورية، وهذا التآلب جاء لإخفاء الحقيقة وعدم التصريح فضلا عن التلميح بمطالب الشعب في سورية.

فالإعلام يصدح صباح مساء بالكذب بأنَّه يقاتل إرهابيين ومرتزقة... والأسلحة بمختلف إشكالها بما فيها الكيماوي لم تتوقف على الشعب السوري بهذه التَّهمة، وكلُّ ذلك بمؤازرة من إفتاءٍ ماجن ومنابر صنع النِّظام أزلامها، تبارك له القتل والتجويع والتهجير.

وأما عن الدُّول المساندة للقتل والإجرام وفي طليعتها صفوية إيران، فهي بذلك تحقق تناغم الكذب والدجل مع التقيَّة التي هي جزء من تلك العقيدة الصفوية وأنَّى للتقيِّة أنْ تلتقي مع الصراحة.

التربية على الصراحة

هناك أكثر من سبيل لهذا، ومنها:

١.أن ننمي هذه الخصلة الموجودة في النفوس، فهي فطرة موجودة في النفس البشرية وهي تعبير عن رفضنا للشيء الذي لا نقتنع به، وعدم الموافق على كل شيء. وتعبير الطفل بالصراخ هو وجه من وجوه رفضه لما لا يعجبه وهو تعبير عن صراحته ووضوحه في مطلبه قبل أنْ يتكلم ويحسن الكلام.

٢. أنْ نمدح أصحاب المواقف الجريئة ولا نذمها، بعض الناس يحبِّطون أصحاب المواقف الشجاعة والصريحة كأن يقولون له، مَن أنت حتى تُصرِّح بهذا القول؟ ستفقد منصبك؟ سيُغضب عليك... ومثل هذه المواقف التي تثبط الهمم ولا تصنع في الناس الرجولة وتبني المواقف.

٣.أنْ نعلم أنَّ الخير والشر والضر والنفع بيد الله تعالى، فإذا استدعى الموقف منّا صراحة فلنفعل ذلك ولن يضيع الله عباده.

٤. أنْ نربي في الناس مراقبة الله تعالى، وأنْ نغرس فيهم الحرص على مصالح الناس، فمن تربَّى على هذا لا بدَّ أنْ يكون حريصا على قول الحق وإظهار ما يحتاجه كل موقف.

٥.أنْ نبين لهم خطورة التذبذب في المواقف وعدم التصريح بها.

٦. أنْ نبين لهم أنّ الصراحة من الواجبات على المسلم، وعندنا حديث: «الدين النصيحة» قلنا: لمن؟ قال: «لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم»[١] يقول الخطابي: (النصيحة كلمة يعبر بها عن جملة هي إرادة الخير للمنصوح له)[٢].

الخاتمة

بعد هذا يمكن القول إنَّ الصراحة خُلُقٌ عالٍ أصيل، وهي من الأخلاق الطيبة التي كانت موجودة عند الكثيرين من العرب في الجاهلية، وهي لا تجتمع مع النفاق، ولأجل هذا لا نجد النفاق في مكة وإنما في عرب المدينة، وقد تسلل إليهم من مجاورتهم لليهود.

والموقف الشرعي هو الذي يتحكم في الإنسان فقد يكون التكلم بالتصريح فُحشا، وقد يكون السكوت أو الإيماء تعمية للأمر أو نفاقا، ولنا في تجلية هذا الأمر من القرآن الكريم والسنة النبوية وتعاملات الصحابة رضوان الله عليهم منهجا نستند عليه.

وإذا كانت الصراحة مطلوبة فلنحذر من المداهنة التي هي خلق ذميم، لأنها السكوت على إهانة الدين والقيم والأخلاق مقابل مصالح مالية أو شخصية أو مكانة، ومن ذلك بعض المفتين ـ كمفتي النظام السوري ـ الذين يمشون مع السلاطين فيفتون لهم بما يتماشى مع أهوائهم، ومثل ذلك أنْ تعظّم الصغير الحقير وتكرمه وهو ليس أهلا للإكرام، فهذه مداهنة وهي بيع للدين مقابل الدنيا، والمداراة بيع للدنيا مقابل الدين، والصراحة هي الوضوح وترجع إلى المحبة.

كما لا ينبغي أنْ تجرَّ الصراحة إلى الوقاحة، الوقاحة مرتبطة بقلة الحياء وبغلظة اللفظ وفظاظته وجلافته بينما الصراحة تبتعد عن ذلك، فالحامل لها محبة الخير وليس الإهانة والتقريع، ولكي يتم التفريق بينهما بوضوح يمكن التمثيل لذلك بتحكيم بحثٍ علمي، فبعض البحوث ليست مؤهلة في نظر المحكِّم، فالفرق كبير بين أنْ يُقال لصاحب البحث نأمل أن ننشر لك في أعداد قادمة، ونعتذر لأنَّ البحث لا يتناسب مع سياسة المجلة، وبين أن يُقال له إنَّ بحثك لا قيمة له، وكيف حصلت على الجامعة! فهذه وقاحة؛ لشدِّتها وللغاية المقصودة منها وهي الإهانة والتحقير[٣].

(١) مسلم، صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان أن الدين النصيحة، رقم: ٩٦.

(٢) أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم بن الخطاب البستي المعروف بالخطابي، معالم السنن، المطبعة العلمية ـ حلب الطبعة: الأولى ١٣٥١ هـ ـ ١٩٣٢ م، ٤/ ١٢٦.

(٣) الوقاحة في اللغة ترجع إلى مادة (وقح)، وهي كلمة تدل على صلابة في الشيء. وقلة في الحياء، انظر ابن فارس، مقاييس اللغة، الواو والقاف والحاء.

الضرب في آية القوامة.. آراء ومواقف

د. سعاد اشوخي ـ المغرب، إجازة في الدراسات الإسلامية، ودكتوراه في اللسانيات

قال تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٞ لِّلۡغَيۡبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُۚ وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهۡجُرُوهُنَّ فِي ٱلۡمَضَاجِعِ وَٱضۡرِبُوهُنَّۖ فَإِنۡ أَطَعۡنَكُمۡ فَلَا تَبۡغُواْ عَلَيۡهِنَّ سَبِيلًاۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيّٗا كَبِيرٗا﴾ [النساء: ٣٤].

يعتني هذا الموضوع بمفهوم الضرب في «آية القوامة»، هذه الآية التي دار فيها نقاش كبير وتفسيرات مختلفة، نقاش وصل إلى القول بأن القرآن الكريم انتقص من قيمة المرأة ومن إنسانيتها في هذه الآية حين أمر بعقوبة الضرب في «النشوز»، ووقف آخرون موقفا آخر ليس حياديا ولا طالبا للحق بل على النقيض تماما حين ابتدعوا تفاسير أخرى لمفهوم الضرب في الآية، وردوا بتفاسيرهم هذه الحكم القرآني وعطَّلوه، فأصبحوا بشكلٍ ما لا ينكرون القرآن ولكن يغلِّطون تفسير جمهور العلماء للآية وما أكدَّها من أحاديث نبوية شريفة.

مدخل

لقد كان الضرب وما زال نوعًا من أنواع التأديب في كثير من المجتمعات بينما منعته مجتمعات أخرى وصنفته من الجرائم التي يعاقب عليها القانون، لكن لو ربطنا الضرب بسياق الأحوال الاجتماعية وعرضناه أمام نصوص من شرعنا الحنيف فلسوف نجد أنه مقبول اجتماعيًّا إلى حد ما، ففي صدر الإسلام وإلى عهد قريب كان لضرب الزوج زوجتَه أحيانًا ما يسوِّغُه، ولا يزال تأديب الآباء للأبناء بالضرب مقبولا، وهو مقبول في حدود ضيقة في بلدان الغرب، بل إن الذين منعوا الضرب التأديبي في المؤسسات التعليمية على الخصوص يجنون اليوم ويلات هذا القرار في بعض البلدان بما ظهر من جرائم ضد الأستاذ وقلة احترام وسوء الأخلاق داخل المؤسسات وخارجها، ناهيك عن الفوضى الأخلاقية وانعدام القيَم داخل الأسرة، وما زلنا في المجتمعات العربية نشهدُ ضرب الكبار للصغار أحيانًا ذكورًا كانوا أم إناثًا تأديبًا لهم ولا أحد يرفضه، فلم لا يقبل ضرب الزوجة تأديبًا في حالة النشوز ويُقبل الضربُ التأديبي للأبناء والبنات والأخوات أحيانًا؟

ونجد بعضًا ممن عرضوا لتفسير نصوص معينة يقرؤون الآية ويفسرون مفهوم الضرب بتفاسير أُخَرَ، بدعوى أن القول بحكم الضرب فيه انتقاص من قيمة المرأة في زمن أصبحت فيه المرأة مساوية للرجل ولا تحتاجُ قوامتَه كما يقولون. ولا يمكن

الجزم بأن هذه التفاسير بريئة إذا نظرنا إلى خلفيات هؤلاء المفسرين الحداثيين ومرجعياتهم الغربية في قراءة النصوص الدينية وتفسيرها.

جدير بالذكر أنَّ ورود مفهوم الضرب في القرآن ليس الهدف منه الدعوة إلى الضرب في أوساطنا ولا التحريض عليه بالبتِّ المطلق، فالضرب وإن كان مشروعًا في التأديب بشروطٍ بينتها السنة فقد جُعل آخر خطوة، والرجل النبيل لا يصل إليه خاصة في زمننا هذا إذ أصبح ينظر إلى الضرب كأنه جريمة بعدما اختلفت العادات ودخلت على الناس أفكار وثقافات.

المطلب الأول: مفهوم القوامة

القوامة ولاية الزوج على الزوجة من حيث قيامه بمصالحها من حماية ورعاية ونفقة وإرشاد وتوجيه...، فهي تكليف رباني، فقد كُلِّفَ الرجل بأن يكفُل للمرأة جميع حقوقها المعنوية والمادية، وعليها أن تحفظه وتعمل على طاعته في كل ما هو حق له عليها بما يرضي اللهَ ورسولَه؛ مَا يعني أن القوامة في الآية ملازمة للحافظية، يقول رشيد كهوس: القوامة «أخت الحافظية، لا يمكن التفريق بينهما، فهما وجهان لعملة واحدة، بهما تتلاحم الأسرة وتسعد، فلا يمكن أن نفصل بينهما كما لا يمكن أن نفصل بين رأس الإنسان وقلبه»[1] والأصل في القوامة أنها للرجل على المرأة، وقد جاء اللفظ «بصيغة المبالغة في قوله: (قوَّامون) ليدل على أصالتهم في هذا الأمر»[2]، والوصف بأسلوب المبالغة دلالة على لصوق الصفة بالموصوف، وتثبت القوامة للرجل بهذه الآية من وجهين «وهبي وكسبي»:

أما الأول فبقوله تعالى: ﴿بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ﴾ فالله عز وجل فضَّل الرجال على النساء من حيث القوة وكمال العقل والعبادات، والعزم والحزم وحسن التدبير واتخاذ القرار...، فالتفضيل ليس منوطا بالجنس من حيث الذكورة والأنوثة، بل يعود لأمور خَلْقية وعقلية ونفسية. وأما الثاني فبقوله تعالى: ﴿وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ﴾ فالرجل من هذه الزاوية مكلف بالإنفاق على زوجته ماديًّا وإن لم تكن بحاجة إلى ذلك كما هو مُطالَب بالإنفاق على جميع النساء ممن هن تحت رعايته.

> تخصيص الرجل بالقوامة تكليف له وتحميل إياه للمسؤولية من جهة، وتشريف للمرأة وتكريم لها في الإسلام من جهة ثانية، وليس في ذلك انتقاص من شأن المرأة

إذًا إنَّ تخصيص الرجل بالقوامة تكليف له وتحميل إياه للمسؤولية من جهة، وتشريف للمرأة وتكريم لها في الإسلام من جهة ثانية، وليس في

(١) القوامة في ضوء القرآن الكريم والسنة النبوية، رشيد كهوس، منشورات جمعية المحافظة على القرآن الكريم، عمان، الأردن، ط: ١، ١٤٢٨هـ٢٠٠٧م، ص: ٣٦

(٢) المرجع السابق، ص: ٣٦.

ذلك ـ كما يظن بعضهم ـ انتقاص من شأن المرأة، فجُلُّ ما تقوله الشريعة: «أنها تختلف عن الرجل، فالقضية هنا تقتصر على أوجه التباين بينهما، وهي لا تتعلق بتحديد من هو الأفضل بينهما»[1]، فهي فروق تكوينية نفسية لا ينكرها العقل، لكنها لا تحدد الأفضلية، فمن الظلم أن ينظر إليها نظرة سلبية.

ويضيف رشيد كهوس موضحا ذلك: إن الشريعة الإسلامية في قوامة الرجل «لم تُلغ شخصية المرأة ولم تنتقص من كرامتها، بل بوَّأتها مكانة لائقة بها وبطبيعتها المرهفة الإحساس، وجعلتها في حماية الرجل يذود عنها ويسهر على راحتها، فإنها والله قمة الكرامة والرفعة»[2] ومن ثم تحدثت الآية عن صنفين من النساء في علاقتهن مع أزواجهن؛ هما صنف المطيعات الصالحات القانتات الحافظات للغيب كما تخبر عنهن الآية، وصنف الناشزات العاصيات، والناشز هي التي تعصي زوجها فلا تطيعه فيما وجب له من حقوق عليها، وقد أسهب المفسرون في بيان صور النشوز، وأُتبِع هذا التصنيف بتسلسلِ عقوبة الناشز بعد الوعظ من خلال الهجر ثم الضرب.

والذي نلاحظه من الآية الكريمة أن الله عز وجل لم يُقدِّم الضرب، بل جعله آخر حل بعد استيفاء القسمَين الأَوَّلين، فكانت الخطوة الأولى بالوعظ كتذكير المرأة بما لها وما عليها من حقوق وواجبات حتى تلين، فإن لم تلن وتطع انتقل إلى الخطوة الثانية المتمثلة بالهجر في الفراش، وهذا له تأثير كبير على نفسية المرأة، وإذا لم تستجب بالوعظ والهجر كان آخر العقوبات الضرب، «فالإسلام عالج نشوز الزوجة عبر مراحل حكيمة؛ فابتدأ من مرحلة العقل وذلك بالموعظة الحسنة والتذكير بالله وما أعدّه للطائعات الصالحات، والترهيب بعقوبة العاصيات الخارجات عن طاعة الأزواج، ثم بعد فشل هذه المرحلة انتقل إلى مرحلة العاطفة، وذلك بالهجر في الفراش وفي بيت النوم، وبعد فشل هذه المرحلة لم يبق إلا الضرب، لكنه بشروط وقيود لعل الزوجة تستجيب وتتراجع عن نشوزها، فلعل الذي لا يؤثر فيه العقل والعاطفة يؤثر فيه الضرب أو التخويف»[3] ولم يجعل الضرب آخر العقوبات إلا لكونه أثقل الحلول على الرجل وأمرَّها على المرأة وأبغضها إلى الله عز وجل ورسوله الكريم لولا أنها ضرورة.

المطلب الثاني: مفهوم الضرب عند المعاندين

إن تفسير الحكم الأخير في الآية بالضرب المعروف هو ما تُجمع عليه تفاسير القرآن الكريم، لكن نجد اليوم من ذهب مذهبا آخر، فأوجد للآية تفاسير أُخَرَ، ومنهم من وصل به الأمر إلى القول بتاريخانية القرآن الكريم وما فيه من أحكام، ومنهم من دعا إلى ضرورة الانعتاق من سلطة النص فيجب التحرر من دلالاته والعمل

(١) المرأة بين شريعة الإسلام والحضارة الغربية، وحيد الدين خان، دار الصحوة للنشر، القاهرة، مصر، ط: ١، ١٤١٤هـ١٩٩٤م، ص: ١١.

(٢) القوامة في ضوء القرآن الكريم والسنة النبوية، ص: ٦٤.

(٣) المرجع السابق، ص: ١١٦.

بمقاصده فقط، فقدَّموا للقرآن قراءات جديدة تُناسب العصر كما يدَّعُون، فلَقِيَت هوًى عند كثير من المدونين المتحدثين باسم حقوق المرأة، وقالوا إن المعنى المقصود بـ «الضرب» هو:

١ـ الإعراض والهجر، فالضرب هنا بمعنى «الإضراب»![١] فإذا نظرنا في تفسيرهم للضرب بـ «الإضراب»، نجد أن المعاجم اللغوية تتفق على أن الضرب حقيقة في الفعل المعروف، وتأتي منه استعارات، يقول ابن فارس: «الضاد والراء والباء أصل واحد، ثم يستعار ويحمل عليه، من ذلك ضرَبْتَ ضربًا إذا أوقعتَ بغيرك ضربا، ويستعار منه ويشبه به»[٢] فالأصل الضرب المعلوم، وما جاء بعده استعارات، ولعل ذلك ما جعل ابن منظور يقول: «الضرب معروف...»[٣]؛ لأن الذهن ينصرف أولا إلى المعنى الحقيقي المعروف، فإذا أبهم المعنى انتقل القارئ إلى البحث عن دلالات أخرى تُفسِّر المعنى وتعطيه وجها دلاليًّا مقبولًا، وينتهي ابن منظور إلى أن معنى «الإضراب» من الفعل «أضرب» بمعنى «الصرف والكف» يقول: «وضربَ الجُرحَ ضَربانًا... إذا آلمه...، وأضْربتُ عن الشيء: كفَفْتُ وأعْرَضْت، وضرَبَ عنه الذِّكرَ وأضْرَبَ عنه: صَرَفَه»[٤]، ويضاف إلى هذا فائدة أخرى أن «أضرب» متعدٍ بحرف الجر «عن»، ليتم به المعنى ويستقيم بعده الكلام، وكذلك «ضرب» الذي يفيد «أعرض» متعدي بعن، وهذا لم يرد في الآية، فيكون المعنى الأول الظاهر للضرب في الآية هو الأصل، وقد ذكر القرآن معنيَيْ الصد والإعراض بألفاظهما نفسها في آيات منها قوله تعالى: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُۚ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ٥٥]. وقوله: ﴿رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾ [النساء: ٦١]. وجاء لفظ الإعراض في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾ [الجن: ١٧]. وقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ﴾ [النساء: ٦٣].

وإذا قلنا تجاوزًا: إن الضرب في الآية بمعنى «الإضراب» ـ الانصراف عن الشيء والامتناع عنه ـ فسنكون أمام عقوبتين من نفس الجنس في الآية، وهما الهجر والإضراب؛ لأن الهجر امتناع، وفي الإضراب امتناع أيضا، ولم يرد في القرآن الكريم عقوبة من نفس الجنس في آيةٍ واحدة على التوالي لا على سبيل التأكيد ولا على سبيل التكرار.

٢ـ تفسير الضرب بعدم الضرب، فقالوا المعنى: «أوقفوا الضرب عليهن»[٥]

وهذا القول مردود إذ ليس هو المقصود لأن

(١) مقالة إلكترونية بعنوان: «أَضْرِبُوا عنهن»، بتاريخ: ٢٧ نوفمبر ٢٠١٦. https://fadiswaiti.wordpress.com/2016/11/27/%D8%A3%D8%B6%D8%B1%D8%A8%D9%88%D9%87%D9%86/

مقالة إلكترونية بعنوان: «التفسير الصحيح لمعنى اضربوهن»، بتاريخ: ٢٠ فبراير ٢٠١٨. http://www.telexpresse.com/permalink/83276.html

(٢) مقاييس اللغة، (ض ر ب).

(٣) لسان العرب، (ض ر ب).

(٤) المصدر السابق.

(٥) مقالة بعنوان: «لا يجوز ضرب الزوجة في الإسلام»، بتاريخ: ١٩فبراير ٢٠٠٨: http://www.ahl-alquran.com/arabic/show_article.php?main_id=3104

النهي عن الضرب عدوانًا يأتي عقب الآية ضمنًا في جملة النهي ﴿فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ﴾ الذي وقع جوابا للشرط ﴿فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ﴾، فلا يأتي النهي عن أمر إلا بعد ذكره صراحة في الخطاب، فسبق التصريح بالضرب عقوبة ولحقها النهي عند ارتفاع السبب فقال: ﴿فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ ... فَلَا تَبْغُوا﴾. قال التوحيدي في شرح ﴿فَلَا تَبْغُوا﴾: «لا تطلبوا عليهن سبيلا من السبل الثلاثة المباحة، وهي الوعظ والهجر والضرب...، وقيل: المعنى فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا من سبل البغي عليهن والإضرار بهن»[1] فتُرفَع العقوبة بارتفاع الذنب، والأحكام متعلقة بمواقف، فتتوقف عند عدم وجود الواقعة أو النازلة[2]؛ فهذا التفسير مردود لأن النهي عن الضرب جاء في موقع آخر من الآية في سياق النهي عن العدوان والظلم بعد الطاعة.

٣ـ اتخاذ موقف، قولهم: الضرب بمعنى اتخذوا موقفا علنيا بسحب القوامة عنهنَّ[3]

هذا قول محمد شحرور، لكن الجمهور ربط رفع القوامة بالإنفاق، يقول التوحيدي: «﴿وَبِمَآ أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ أنه متى عجز عن نفقتها لم يكن قواما عليها، وإذا لم يكن قواما عليها كان لها فسخ العقد لزوال المعقود الذي شُرع لأجله النكاح»[4] فالقوامة مشروطة بالإنفاق، والإنفاق لا ينحصر في الأمور المادية فقط بل يتجاوزها إلى أمور معنوية مثل الحماية والولاية والرعاية والدفء...، فالمرأة تحتاج دائما إلى سند قوي يدعمها في الحياة، والدليل على ذلك أن المرأة رغم خروجها إلى العمل وتحقيق استقلاليتها المادية، ورغم ما حقَّقته من تفوق في كل مناحي الحياة إلا أنها مازالت تحتاج إلى «سكن» بالمعنى القرآني: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا إِلَيْهَا﴾ [الروم: ٢١] سكن يبعث على الهدوء والطمأنينة والأمن والأمان.

ولا يصح التفسير بهذا الوجه الذي يقوله شحرور؛ لأن الشرع الحنيف أمر الزوج بالإنفاق على المرضعة حتى تضع حملها والمطلقة طلاقا رجعيًّا، ونهى عن كل ما يضر بها، يقول عز من قائل: ﴿وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ ۚ وَإِن كُنَّ أُو۟لَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۖ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ ۖ﴾ [الطلاق: ٦]، فإذا كانت هذه الوصية الربانية في حق المطلقة فكيف يُعقل تفسير الضرب برفع النفقة عن المرأة التي ما زالت في علاقة زوجية مع زوجها!

المطلب الثالث: القوامة ومفهوم الضرب في السنة

الآية محكمة لم تُنسخ بلا خلاف، بل نَسَخت

(١) تفسير البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي، تحقيق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود وآخرون، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط: ١، ١٩٩٣م، ٣/٢٥٢ ـ ٢٥٣.

(٢) الأحكام القرآنية ثابتة صالحة لكل زمان ومكان، لكن لا تطبق إلا عند وجود ما يستوجب الحكم.

(٣) الكتاب والقرآن: قراءة معاصرة، محمد شحرور، الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق سوريا، ص: ٦٢٢.

(٤) المرجع السابق، ٣/٢٥٠.

حكما في السنة النبوية حين جاءت امرأة إلى رسول الله عليه الصلاة والسلام تشتكي زوجها، فقيل إن «الآية نزلت في سعد بن الربيع، نشزت عليه امرأته حبيبة بنت زيد بن أبي زهير فلطمها؛ فقال أبوها: يا رسول الله، أفرشته كريمتي فلطمها! فقال عليه الصلاة والسلام: لِتقتصَّ من زوجها، فانصرفت مع أبيها لتقتص منه، فقال عليه الصلاة والسلام: ارجعوا هذا جبريل أتاني، فأنزل الله هذه الآية، فقال عليه الصلاة والسلام: أردنا أمرًا وأراد الله غيره، وفي رواية أخرى: أردت شيئا، وما أراد الله خير، ونقض الحكم الأول»(١).

فالآية نسخت حكم النبي عليه الصلاة والسلام في حكمه للزوجة بالقصاص من الزوج، وقيَّدت هذا الضرب بحالة النشوز فقط، يقول القرطبي: «ودلَّت هذه الآية على تأديب الرجال نساءهم، فإن حفظن حقوق الرجال فلا ينبغي أن يُسيء الرجل عشرتها»(٢) ويُستخلص من هذا أن الضرب في غير هذا الموقف نوع من العدوان والاعتداء، قال عز وجل: ﴿فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٣٤] يقول التوحيدي: «فلا تطلبوا عليهن سبيلا من السبل الثلاثة المباحة، وهي الوعظ والهجر والضرب، وقيل: يحتمل أن يكون تبغوا من البغي وهو الظلم...، وقيل: المعنى فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا من سبل البغي عليهن، والإضرار بهن»(٣) فترتفع هذه العقوبات في حالة الطاعة كما ذكرنا سابقا.

وجدير بالذكر أنه لم يذكر ضرب المرأة الناشز بشكل صريح في غير هذا الموضع من سورة النساء، يقول القرطبي: «فاعلم أن الله عز وجل لم يأمر في شيء من كتابه بالضرب صُراحا إلا هنا وفي الحدود العظام...، إنَّما جوّز ضرب النساء من أجل امتناعهن على أزواجهن في المباضعة»(٤)، فهذا حكم خاص مرتبط بهذا الموقف، فلا حق لأحد في أذية مؤمن أو مؤمنة بغير وجه حق إلا أن يأتي ما يستحق عليه العقوبة والجزاء، قال عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾ [الأحزاب: ٥٨].

وتأتي الأحاديث من السنة النبوية مؤيدة لما دلت عليه الآية، جاء في حَجة الوداع أن رسول الله ﷺ قال: «اتقوا الله في النساء، فإنكم أخذتموهن بأمان الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله، ولكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم أحدا تكرهونه، فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضربا غير مبرح»(٥) فهذا الحديث يدعم الآية ويثبت جواز الضرب، وقيده بـ «غير مبرح» فبيَّنه ابن عباس حين سئل: «ما الضرب غير المبرح؟ قال:

(١) الجامع لأحكام القرآن، تح: عبد الله بن عبد المحسن التركي وآخر، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط: ١، ١٤٦٧هـ٢٠٠٦م، ٢٧٨/٦. أسباب النزول، السيوطي، مؤسسة الكتب الثقافية للنشر، ط: ١، ١٤٢٢هـ٢٠٠٢م، ص: ٧٥.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، ٢٨١/٦.

(٣) تفسير البحر المحيط، ٢٥٢/٣ ـ ٢٥٣.

(٤) المصدر السابق، ٢٨٧/٦ ـ ٢٨٨.

(٥) صحيح مسلم، كتاب الحج، باب حجة النبي ﷺ، ح: ١٢١٨، تح: محمد فؤاد عبد الباقي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط: ١، ١٤١٢هـ١٩٩١م، ٨٨٦/٢.

بالسواك ونحوه»[١] فهو ضرب لا يترك أثرا، ولا يكون إلا دلالة على اللوم والعتاب كونه خطوة أخيرة بعد الوعظ والهجر.

وتمييزا لهذا النوع من الضرب نهى الرسول ﷺ عن الضرب المبرح، وقد جاء عند البخاري في باب ما يُكره من ضرب النساء وقوله تعالى: ﴿وَٱضۡرِبُوهُنَّ﴾ أي ضربا غير مبرح: قول الرسول ﷺ: «لا يجلد أحدكم امرأته جلد العبد ثم يجامعها في آخر اليوم»[٢] فالضرب الذي يقصد به التأديب هو الضرب الخفيف الذي لا يفضي إلى آثار ولا جروح ولا كسور، وحددته السنة النبوية في غير المبرح مثل الضرب بالسواك تنبيها إلى رمزيته النفسية، ونهى عن الضرب المبرح والجلد في الحديث الآخر، ولا يكون هذا الضرب إلا آخر العقوبات «فجمهور العلماء على أن الواجب على الزوج أن يسلك في معالجته لزوجته تلك الأنواع الثلاثة على الترتيب...، بأن يبدأ بالوعظ ثم الهجر ثم الضرب لأن الله تعالى قد أمر بذلك، ولأنه تعالى قد رتّب هذه العقوبات بتلك الطريقة الحكيمة التي تبدأ بالعقوبة الخفيفة، ثم تتدرج إلى العقوبة الشديدة ثم الأكثر شدة»[٣].

ولما كان الضرب آخر العقوبات، كان تركه أولى «لأنه لم يثبت عن النبي ﷺ قط أنه ضرب زوجته»[٤] جاء عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنها قالت: (ما ضرب رسول الله ﷺ شيئًا قط بيده ولا امرأة ولا خادمًا، إلا أن يجاهد في سبيل الله، وما نِيل منه شيء فينتقم من صاحبه إلا أن ينتهك شيء من محارم الله، فينتقم لله عز وجل)[٥] أما ما ثبت من أنه عليه الصلاة والسلام دفع بيده في صدر أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، فلم يكن ضربا بل دفعًا من باب الملاطفة أو التنبيه، وقد ذكرت ذلك عائشة في حديث طويل يوم خرج الرسول عليه الصلاة والسلام إلى البقيع في ليلتها، قالت: (فلهدني في صدري لهدة أوجعتني، ثم قال: أظننت أن يحيف الله عليك ورسوله)[٦] واللهد لغةً الدفع، فهو من باب الملاطفة أو التربية والتنبيه على إساءتها الظنَّ وليس ضربًا، فكمال خلق النبي عليه السلام وتنزهه عن مثل هذه الأمور كان أكبر من أن يسقطه فيها.

المطلب الرابع: آية القوامة من رؤية البرمجة اللغوية العصبية

إذا نظرنا إلى الآية من زاوية نفسية وعصبية حديثة يمكننا القول: إنَّ الله عز وجل في تقسيمه لهذه العقوبة جعلها وفقًا لأصناف الناس في استجاباتهم وتلقيهم للرسائل من حولهم بشكل

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٢٨٧/٦

(٢) صحيح البخاري، كتاب النكاح، باب ما يُكره من ضرب النساء، دار ابن كثير، صيدا ـ بيروت، ط: ١، ١٤٢٣هـ ٢٠٠٢م، رقم ٥٢٠٤.

(٣) المرأة في الإسلام، الشيخ محمد الغزالي، محمد سيد طنطاوي، أحمد عمر هاشم، مطبوعات أخبار اليوم، ١٩٩١م، ص: ٨١.

(٤) القوامة في ضوء القرآن الكريم والسنة النبوية، ص: ١١٠.

(٥) صحيح مسلم، كتاب الفضائل، باب مباعدته ﷺ للآثام...، رقم ٤٣٢٧.

(٦) المصدر نفسه، كتاب الجنائز، باب: ما يقال عند زيارة القبور...، ح: ٩٧٤.

عام، فمنهم السمعي ومنهم البصري ومنهم الحسي، فتكون سرعة الاستجابة والتفاعل راجعة إلى نوع المؤثر.

تقسم الدراسات العصبية الحديثة شخصية الإنسان من حيث إدراكها للأشياء إلى ما يسمى بالأنظمة التمثيلية، وأول من وضع هذا الأسلوب هما العالمان الأمريكيان: ريتشارد باندلر (Richard Bandler) وجون غريندر (John Grinder) سنة ١٩٧٣م، اللذان قدَّما هذه التقنية (NLP Neuro Linguistic Programming) على أنها علم جديد أطلقا عليه اسم (برمجة الأعصاب لغويًا)، فأثبتا أن عملية الإدراك عند الناس تقوم على الأنظمة التمثيلية Representational Systems، وهي استقبال المعلومات عن طريق الحواس الخمس ثم ترجمتها وتصنيفها إلى نظام بصري أو سمعي أو حسي، يقول محمد يوسف الهاشمي: «تتم عملية الإدراك عن طريق ورود المعلومات إلى الدماغ عن طريق الحواس الخمس...، ويمثل الإحساس المتولد عن كل حاسة نمطا أو نظاما خاصا للإدراك، ولكل شخص نظام يغلب عليه، فإما أن يكون سمعيا أو بصريا أو حسيا؛ البصري يحتوي على صور ومشاهد، السمعي يحتوي على سمعيات، الحسي يحتوي على عواطف أو حسِّيات»(١).

إن تلقي الناس للأشياء وتقبلها وإدراكها يتم عن طريق الحواس الخمس، فهي تستقبل الرسائل من الآخرين وتعالجها في الدماغ لتُحدث بعد ذلك استجابة معينة، يقول محمد التريكي: «يتم الإدراك عن طريق ورود المعلومات إلى الدماغ من الحواس الخمس...، ويقوم الدماغ بتحفيز المعلومات ثم تفسيرها وبالتالي فهمها»(٢)، وتسمى هذه الأنظمة بالأنماط أيضا، ويرمز لها في الإنجليزية بـ: VAK، وهي الحروف الأوائل للكلمات: (Visual, Auditory, Kinesthetic)(٣).

إذا كنَّا قد سلَّمنا بهذه النظرية ووظفناها في العلاج النفسي والعصبي، وأصبحت نظرية مهمة في تنمية المهارات التربوية والتعامل مع الطفل، فلماذا لا نقبل بها وجهًا يعلل الضرب في الآية ويسوِّغه، ومن ثم نقرأ النص القرآني بهذا المعنى الصريح بعيدا عن إلباسه أي معاني أُخَرَ؟

تقسيم العقوبات على هذا الوجه في ضوء هذا التصنيف أمر مقصود يرجع إلى مراعاة طرائق تلقي المرأة للأشياء بحسب الأنظمة العصبية: نظام سمعي ونظام بصري ونظام حسي، وهو في الآية على الشكل التالي:

أولا: الوعظ ← الكلام ← مؤثر صوتي

ثانيا: الهجر ← مشهد/سلوك بصري ← مؤثر بصري

ثالثا: الضرب ← اللمس ← مؤثر حسي

وهذا ترتيب وتقسيم حكيم، فالمرأة بشكل عام سريعة التأثر، فقد تتأثر بكلمة «نصيحة»

(١) البرمجة اللغوية العصبية والأثر النفسي للألوان، الأهلية للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط: ١، ٢٠٠٦م، ص: ٣١ ـ ٣٢.

(٢) آفاق بلا حدود بحث في هندسة النفس الإنسانية، محمد التكريتي، الملتقى للنشر والتوزيع، سورية، ط: ٥، ٢٠٠٣، ص: ٥٨.

(٣) المرجع السابق، ص: ٥٦.

فتنقلب إلى إنسان آخر تماما، وقد تتأثر نفسيا بـ «سلوك» كالهجر فتعود عما كانت عليه، وقد لا تتأثر بهما معا وتتأثر بـ «الأثر المادي» وهو الضرب الخفيف، فهذه الخطوات الثلاثة أو هذه الأنظمة التمثيلية جاءت على ترتيب مقصود: الوعظ والهجر والضرب، وهي خطوات يغني أدناها عن أقصاها إذا حدثت الاستجابة.

ومعلوم أن الناس يتفاوتون في سرعة الاستجابة وفي طرق تلقي الأشياء من العالم الخارجي، «لكل واحد منا نُمَيطات مفضلة يكون تأثيرها في استجابته أكثر من غيرها ندعوها النميطات الحرجة، وغالبا ما يؤدي النميط الحرج إلى تغيير النمط بكامله، فيكون في هذه الحالة مفتاحا لتغيير الحالة الذهنية تغييرا كاملا، وبالتالي تغيير السلوك أو المشاعر»[1]، والمحدِّد لهذه الأفضلية هو نمط الاستجابة عقب أي مؤثر من المؤثرات.

إن مراعاة الأنماط أو الأنظمة التمثيلية عند الناس يساعد بشكل كبير على خلق قنوات تواصل أسرع تؤدي إلى التفاهم والانسجام وتحاشي أي خصومات وخلافات، والعلاقة الزوجية تقوم على أساس الود والوئام والانسجام، ومتى انعدم ذلك أوجد الشرع حلولا حتى لا ينقطع حبل هذا الميثاق الغليظ، وقد تدرَّج في الأحكام المتعلقة بالمرأة لكونها العنصر الضعيف والرقيق في الأسرة، مراعيا السمات الشخصية والنفسية والسلوكية عند النساء بشكل عام، ولم يكن الضرب غير المبرح إلا استثناء خاصا بنوع خاص من النساء في حالة خاصة، وأما في السياق العام ففي القرآن والسنة تأكيد جليٌّ على احترام المرأة وصيانة حقوقها.

والقرآن لم يتحدث عن هذا النوع من النساء إلا لوجودهن، ولا يخلو مجتمع منهن، لكن الغريب أن يرفض قومٌ تفسير الضرب في معالجة النشوز بمعناه المعهود وبشروطه بينما يقبلون أشدَّ منه بمرات ومرات بلا مسوِّغ في حالات الساديين والمازوخيين! «أليس من الغريب في الواقع المعيش أن ترى المرأة التي ترفض قوامة الزوج عليها وترفض طاعته في المعروف هي التي نراها تتفانى في طاعة رئيسها في الإدارة والمكتب والمعمل ولا تناقشه في شيء طلبه منها أو أمر به، وإن الذين يتظاهرون بالدفاع عن حريتها هم من يفرضون عليها طاعتهم وتنفيذ أوامرهم ولا يتساهلون معها في ذلك، ثم لا ترى المرأة ولا هؤلاء أن في ذلك مسًّا بكرامة المرأة ولا انتهاكا لحرمتها وتقييدا لحريتها»[2].

> القوامة تكريم للمرأة وتكليف للرجل يعقبه تشريف

(١) المرجع نفسه، ص: ٦٦ ـ ٦٧.

(٢) لا ذكورية في الفقه، محمد التاويل، مطبعة أنفو ـ برانت، فاس، المغرب، ط: ٢٠١٠م، ص: ٨٧.

إن القوامة تكريم للمرأة وتكليف للرجل يعقبه تشريف، وأحكام القرآن الكريم لم يقررها رجل ولا امرأة حتى ينحاز طرف إلى نفسه على حساب الآخر، بل هي أحكام خبير حكيم خلق الناس سواء في التكليف والجزاء، ثم إن آية القوامة وحكم المرأة الناشز لا يخالف النصوص القرآنية التي جاءت تحث على حسن المعاشرة ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [النساء: ١٩] فالقرآن الكريم دستور لحقوق الرجل والمرأة وواجباتهما، والسُّنة مدرسة شارحة له مبينة لما غمض وأشكل فيه، والذي ينكر المعنى الصريح للضرب في الآية ينكر ضمنا كل الأحاديث النبوية التي جاءت في هذا المعنى، والذي يجب أن يفهم هو أن القرآن الكريم جاء بالضرب لأنه وسيلة من وسائل التربية والتأديب في حالات مخصوصة، فلا يمكن تأويل الآية وتحريفها لأن مجتمعا ما جرَّم الضرب ومنعه، بل إن ما يجب على كل مسلم ومسلمة أمام الأحكام الشرعية الصريحة الواردة في القرآن الكريم والسنة النبوية السمع والطاعة ولو خالفت رأيه وهواه، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦].

وقد كان من الجهل بالدين أن يوصف الفقه الإسلامي بالذكوري استنادًا إلى قضايا مثل القوامة والإمامة والولاية والميراث لتعارضها مع مبدأ المساواة، والحق أن القوامة مثلا «لا تتعارض مع مبدأ المساواة لأنها وظيفة لتدبير شؤون الأسرة فقط...، فالإسلام جعل الرجل قوّاما بتفضيل الفطرة والتكوين، وليس الذكر كالأنثى في الوظائف والتكوين، فكل واحد خلق لوظيفته الخاصة به، فالرجل وظيفته التعب والمشقة والسهر على راحة البيت والأسرة، والمرأة وظيفتها الإنجاب وتربية الأطفال...»[١] والحكمة الإلهية في تقسيم الأحكام والواجبات أكبر وأعظم من أن تعلَّل بـ «الهيمنة الذكورية»، يقول محمد التاويل مؤكدًا على هذه النقطة: «إنها مسؤولية وليست سلطة مطلقة يتحكم الأزواج بمقتضاها في زوجاتهم كما يشاؤون، بل هي سلطة مقيدة بضوابط شرعية صارمة، تفرض على الزوج الوقوف عندها وعدم تجاوزها، وإلا تعرض للتأديب في الدنيا والعقاب في الآخرة».[٢]

ولا بد من القول بأن هذا الموضوع ليس دراسة فقهية ولا فتوى، فللفقه أهله ورجاله، إنما جاء اجتهادًا من باب الغيرة على النص القرآني، فليس فيه أي دعوة إلى الضرب أو التحريض عليه ولا تحجيم لدور المرأة، فهي أكبر عنصر فاعل وريادي في المجتمع أُمًّا وابنةً وزوجةً ومعلمةً وطبيبة...

(١) القوامة في ضوء القرآن الكريم والسنة النبوية، ص: ٦٣.
(٢) لا ذكورية في الفقه، ص: ٨١.

مقاصد عبادة الصوم

د. مجدي قويدر . عضو هيئة علماء فلسطين في الخارج ومدير تحرير مجلة المرقاة

العبادات في الإسلام تسهم في بناء شخصية المسلم، والمداومة على الاستقامة، وحراستها من غوائل الشيطان، وتنمية دوافع الخير، وتقليم نوازع الشر، ولكل عبادة دورها وأثرها في تحقيق هذه الوظيفة وحماية الشخصية المسلمة من السقوط والانكسار والوصول بالمجتمع الإسلامي؛ ليكون مجتمع المتقين. والتحقق بملكة التقوى يمنح الإنسان البصيرة النافذة، والشعور الفياض، والقدرة على التمييز بين الحق والباطل، والخير والشر، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴾ [الأنفال: ٢٩].

والعبادات وشهر رمضان على وجه خاص مواسم للمراجعة والتجدد واستعادة الفاعلية، واسترجاع التوازن الذي يكاد نفتقده في غمرة الحياة بدوافعها ونوازعها، وهي مراكز للتدريب العملي على القيم والمعاني ضمن مناخ جماعي ملائم، يغري بالاقتداء، ويعين على الإنجاز، ولهذا لا تغني عبادة عن الأخرى في القيام بوظيفتها في بناء الشخصية المسلمة، ولو كانت إحدى العبادات كافية ومغنية لم تكن هناك حاجة لتعدد العبادات وتنوعها.

وفي هذا المقال أسلط الضوء على أهم مقاصد عبادة الصوم التي تسهم في بناء الشخصية المسلمة وحمايتها من عوامل الهدم والانهيار وهي على النحو التالي:

١. التحقق بتقوى الله

جاء في الآية التي فُرض فيها الصوم علينا التعليل للتكليف برجاء تحقيق التقوى، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ١٨٣]، والتقوى: وصف جامع لخيري الدنيا والآخرة، والتقوى تنشأ عن الإيمان بالغيب الذي يوقظ الضمير، ويحيي المراقبة لله، ويحرس من الوقوع في المآثم، ويبعث على العمل، وعبادة الصوم تتجلى فيها أسمى صور الإيمان حيث يمتنع المسلم عن المباحات موقنا بمراقبة الله، محتسبًا لله، يدع طعامه وشهوته لله، صابرًا على طاعته، متزودًا بالتقوى لسفره الطويل.

ومن أهم شروط التقوى الانفطام عن شهوات النفس، والانعتاق من أسرها، والاستعلاء على مطالب الجسد، والتحرر من سلطانه، والارتقاء إلى أهداف تتناسب مع إنسانية الإنسان؛ لتحقيق الغاية من وجوده، وهي العبودية الخالصة

لله، والاستخلاف الحضاري في الأرض.

والتقوى وقاية نفسية واجتماعية واقتصادية مركوزة في العبادات وفي الصيام تحديدا، لحماية الإنسان من غوائل نفسه وهينمة شهواته وليس قهرا للنفس وإعناتا للجسد، وقد عبر النبي ﷺ عن الصيام بوظيفته فقال: «الصوم جُنَّةٌ»(١)، والجُنَّة الوقاية، والسترة، وكل ما وقى من سلاح وغيره، فشبه النبي ﷺ الصيام بالدرع الحصينة التي يلبسها المقاتل لتقي ضربات العدو ولهذا تشكل عبادة الصوم وقاية للعبد من الوقوع في المعاصي ومقارفة الحرام، واجتراح السيئات قال رسول الله ﷺ: «من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه»(٢). وهي وقاية له من مجاراة السفهاء ومخاصمة الجهلاء، وسوء الأخلاق والسفه والشقاق، فقد قال النبي ﷺ: «والصيام جنة، وإذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولا يصخب. فإن سابّه أحد أو قاتله فليقل إني امرؤ صائم»(٣) وبهذا يتحلى بحسن المعاملة، والدفع بالتي هي أحسن، ويتعود على الأخلاق النبيلة.

والصوم حماية وحصن منيعة تحمي المسلم من السقوط في كل ما يشينه في الدنيا ويهينه في الآخرة؛ لأنه يهذب السلوك، ويزكي النفوس، ويطهّر القلوب، ويزيد في الإيمان، ويرقى بالشعور، ويوقظ الضمائر، ويبعث على الاجتهاد في طلب الرضوان، لينجو من النيران، ويفوز بالجنان، فهو من أعظم حصون المسلم الواقية من المهالك. وقد قال رسول الله ﷺ: «الصيام جنة»، وهو حصن من حصون المؤمن وكل عمل لصاحبه إلا الصيام. يقول الله: «الصيام لي وأنا أجزي به»(٤)، وقال رسول الله ﷺ: «الصيام جنة وحصن حصين من النار»(٥).

> الصوم الحقيقي هو صوم الجوارح عن محارم الله

والصيام في معدود الأيام من أهم أسباب الوقاية من الشهوات المردية، خاصة وأن الصوم الحقيقي هو صوم الجوارح عن محارم الله، فإن مَنْ قَدِرَ على الصوم عن الشهوات الجامحة التي خُلق الإنسان إزاءها ضعيفًا؛ كان أقدرَ على اجتناب محارم الأعضاء الأخرى؛ فإن حدودها مؤبدة، لا تحل بغروب الشمس، ولا بِأُفُولِ الشهر، وقد وصف النبي ﷺ الصوم للأعزب إذا لم يجد سبيلا إلى النكاح الحلال فقال: «يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء» [متفق عليه]. فهو جنة بمعنى حماية وحاجز من الفحشاء والفجور.

(١) صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب من لم يدع قول الزور والعمل به، ح (١٩٠٣).
(٢) صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب من لم يدع قول الزور والعمل به، ح (١٩٠٣).
(٣) صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب هل يقول: إني صائم إذا شتم؟، ح (١٩٠٤).
(٤) صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب من لم يدع قول الزور والعمل به، ح (١٩٠٣).
(٥) مسند الإمام أحمد، مسند أبي هريرة، ح (٩٢٢٥).

٢. التدريب على الجهاد

ومن مقاصد الصيام التدريب على أعباء الجهاد والتعبئة بها؛ ليكون الصائمون إيمانًا واحتسابًا أكثرَ القوم ثباتًا وصمودًا؛ بل جهادًا وجلادًا، حتى لو انقطع المدد، وأَمْضَوْا أيامًا معدوداتٍ من غير ماءٍ أو أقوات، كما حصل في بعض الغزوات، حين شَحَّتِ الأمداد، وكان نصيب الواحد منهم تمرةً واحدة في كل أربعٍ وعشرين ساعة، يأخذ منها مَصَّةً أو مصتين كلما آذاه الجوع، ويشرب عليها الماء، ثم انبرتْ أيام جُوعٍ بعدها لم يكونوا يجدون تلك التمرة، لكنهم ما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله، وما ضَعُفُوا، وما استكانوا، والله يحب الصابرين.

إذًا فالصوم تدريب على احتمال ما يصيب المجاهدين من الظمأ والنصب والمخمصة، فيكونون أقدر على التجلد لها؛ فإن جيوش الجوع والعطش أَفْتَكُ بالجيوش من عدوهم، ذلك أن الذي لا يصبر على شهوة الطعام والشراب لا يصبر على شهوة الحياة، فإذا حَمِيَ الوَطيس، واحْمَرَّ البأس، رأيتهم ينظرون إليك نظر المغشيِّ عليه من الموت، حتى لكأنما يُساقون إلى الموت وهم ينظرون.

ألم تروا إلى طالوت الذي أُوتي بسطة في العلم والجسم كيف يقول للجنود: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾ [البقرة: ٢٤٩]، فلم يجدْ لهم عزمًا، ورضوا أن يكونوا مع القاعدين، فكان مثلهم كالذين قالوا لموسى عليه السلام: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤].

ومن معاني الجهاد في الصوم أنه معركة تُخاض مع النفس الأمَّارة بالسوء، والنفسُ كالطفل في حُبِّ الشَبِّ على الرضاع، وإن تفطمه ينفطم، وفطام النفس بالصوم، وإذا كان الله لا يُغَيِّرُ ما بقومٍ حتى يُغَيِّروا ما بأنفسهم؛ فإن الصيام سبيل نقلها من اهتمامات الطفولة إلى الشعور بالرجولة، فإذا صارت النفوس كبارًا تَعِبَتْ في مُرادها الأجسام.

ثم إنه معركة مع الشيطان الذي يُزَيِّنُ للإنسان سوء عمله، فيراه حسنًا، والذي وصفه الله فقال: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦]، وقال: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [البقرة: ١٦٨].

ومن بعد ذلك فالصوم مدرسة في جهاد الدنيا التي أخذتْ زخرفها، وازَّيَنَتْ، فَغَرَّتْكُمْ بزهرتها، وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور، فاتقوا الدنيا، واتقوا النساء؛ فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء، ولا زالت معظم الهزائم من خور العزائم أمام الوظائف والفواحش.

إن من انتصر بالصوم على هؤلاء الأعداء في معركته الداخلية حقيقٌ أن يحقق النصر في معركته الخارجية، حين يجاهد الكفار والمنافقين، ويغلظ عليهم، وحين تقاتلون المشركين كافة كما

يقاتلونكم كافة.

إن الصوم رباط على حدود الله فلا تقربوها، وهو حراسةٌ للنفس من الجنوح أو الجماح للمعصية بقوة الوازع الديني، والهيبة من الله ذي الجلال والجبروت، وحَرِيٌّ بمن دأب على هذا الرباط، فكان ممن صبروا وصابروا ورابطوا، أن يستسهل الرباط في الثغور، فلا تؤتى الأوطان من قِبَلِه.

إنه من الواجب أن نؤكد أن الشهوة رِقٌّ وعبودية، وأن الواقعين في أَسْرِها قد فقدوا الحرية، فَأَمْسَوا مماليك لها، وأنَّى لفاقد الحرية أن يمنحها البلاد أو العباد؟!، فالصوم إذًا إفلاتٌ من الأَسْر، وتحررٌ من الرقِّ، وإن الذي يَكِرُّ وهو حُرٌّ يفوز بالنصر والظَّفَر.

٣. الصوم وقاية للنفس

فهو يقي النفس من غوائل المال والاستغناء به، ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ [العلق: ٦ ـ ٧]، والحرص على حيازته واكتنازه، والشح به كنوازع بشرية مهلكة قال تعالى: ﴿وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّۚ﴾ [النساء: ١٢٨] أي: جعل شيئا حاضرا لها كأنه ملازم لها لا يفارقها؛ لأنها جبلت عليه، وأشار في موضع آخر إلى أنه لا يفلح أحد إلا إذا وقاه الله شح نفسه، ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩] والعلاج الناجع للشح والبخل يكون الإنفاق من المال، ورمضان موسم للانعتاق من عبودية المال، والعودة إلى حالة التوازن الاجتماعي، وذلك بالمسارعة إلى الإنفاق في سبيل الله اقتداء برسوله ﷺ الذي كان أجود الناس، وأجود ما يكون في رمضان، وأجود بالخير من الريح المرسلة، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَجْوَدَ النَّاسِ، وَكَانَ أَجْوَدُ مَا يَكُونُ فِي رَمَضَانَ حِينَ يَلْقَاهُ جِبْرِيلُ، وَكَانَ يَلْقَاهُ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ مِنْ رَمَضَانَ فَيُدَارِسُهُ القُرْآنَ، فَلَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَجْوَدُ بِالخَيْرِ مِنَ الرِّيحِ المُرْسَلَةِ»[١]، فبالصدقات تزيد النعم، وتزول النقم.

٤. رمضان موسم المغفرة

رمضان محطة لمغفرة الذنوب، وتكفير السيئات، وإطفاء حرائق المعاصي، وإخماد نيران الآثام، ومطهرة من الخطيئات، فـ «من صام رمضان إيمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه»[٢]، «ومن قام رمضان إيمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه»[٣]، «ومن قام ليلة القدر إيمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه»[٤]، وفي الحديث: (ارْتَقَى رَسُولُ اللَّهِ ـ ﷺ ـ الْمِنْبَرَ، فَقَالَ: «آمِينَ»، ثُمَّ ارْتَقَى ثَانِيَةً، فَقَالَ: «آمِينَ»، ثُمَّ اسْتَوَى عَلَيْهِ فَقَالَ: «آمِينَ». فَقَالَ أَصْحَابُهُ: عَلَى مَا أَمَّنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟! فَقَالَ: «أَتَانِي جِبْرِيلُ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، رَغِمَ أَنْفُ امْرِئٍ ذُكِرْتَ عِنْدَهُ فَلَمْ يُصَلِّ عَلَيْكَ،

(١) صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب أجود ما كان النبي، ح (١٩٠٢).

(٢) صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب من صام رمضان إيمانا واحتسابا، ح (١٩٠١).

(٣) صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب من صام رمضان إيمانا واحتسابا، ح (١٩٠١).

(٤) صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب من صام رمضان إيمانا واحتسابا، ح (١٩٠١).

فَقُلْتُ: آمِينَ، ثُمَّ قَالَ: رَغِمَ أَنْفُ امْرِئٍ أَدْرَكَ وَالِدَيْهِ أَوْ أَحَدَهُمَا فَلَمْ يُدْخِلاهُ الْجَنَّةَ، فَقُلْتُ: آمِينَ، ثُمَّ قَالَ: رَغِمَ أَنْفُ امْرِئٍ أَدْرَكَ شَهْرَ رَمَضَانَ فَلَمْ يُغْفَرْ لَهُ، فَقُلْتُ: آمِينَ»[١]. «ورمضان إلى رمضان كفارة لما بينهما»[٢] فرحمة الله واسعة، والله غافر الذنب، وقابل التوب، فلا تفوتوا فرصة المغفرة، ولا تفرطوا في موسم الطاعة.

> الصيام يشعر الإنسان بحجمه الطبيعي وببشريته، وحاجته، ويحميه من آفة التأله، والتسلط، والتعالي على عباد الله فهو بشر مثلهم مفتقر لصنوف الطعام والشراب

٥. تنمية الشعور بالآخرين

الصيام ينمي لدى المسلم الشعور بالآخرين والإحساس بالفقراء، فهو يشعر الإنسان بحجمه الطبيعي وببشريته، وحاجته، ويحميه من آفة التأله، والتسلط، والتعالي على عباد الله. فهو بشر مثلهم مفتقر لصنوف الطعام والشراب وسائر الأشياء التي لا يحس بها إذا كان يعيش الوفرة، ولا أدل من الصوم للإنسان على حقيقته، واستشعار حاجات الآخرين، فهو مدرسة عملية للقضاء على الأثرة والأنانية، وإحياء لروح الشعور بالجسد الواحد، فهو أشد وقعا في النفس من كلام البلغاء، ومواعظ الخطباء، لأنه تذكير يسمعه من بطنه الفارغة، وأمعائه الخاوية، وكبده العطشى، فيشعر بآلام الجائعين، وبؤس البائسين، فيتحرك بهذا الحس الاجتماعي للتخفيف من معاناتهم، والمساهمة في قضاء حوائجهم، وأداء الواجب لله تجاههم.

لذلك التهيؤ بالصيام والتصويب النفسي في أجوائه، وإدراك مقاصده، واسترجاع معانيه، يمنح المرء آفاقا بعيدة من العطاء والنقاء لا تحدها حدود، بحيث يجود الإنسان مقتديا برسول الله ﷺ بنفس تحمل الخير للإنسانية؛ ليكون شهر رمضان حقيقة شهر التكافل الاجتماعي، فيحس المسلون بطعمه، ويقطفون ثمرته، ويعيشون معانيه، ويحققون مقاصده.

٦. تعود شكر النعم

قد يصيب الإنسان في أيامه العادية، بعض كفران النعمة، وعدم الالتزام بواجب شكرها، وعدم أداء حقوقها، فيأتي الصوم كعملية تصويب وترميم للنفس البشرية مما أصابها، فيعْرِف أهمية وقيمة النعم بشيء من فقدها، والحرمان منها، ولو لساعات، فيهرع إلى شكرها؛ ليضمن دوامها والاستزادة منها، ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧]، فالشكر يزيد النعم والكفر يذهبها، وَقد قَالَ سبحانه فِي الْكُفْرَانِ وَعَوَاقِبِهِ: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ

(١) صحيح مسلم (٢٥٥١) مختصراً بنحوه، والترمذي (٣٥٤٥) واللفظ له، وأحمد (٧٤٤٤) باختلاف يسير.
(٢) مسند الإمام أحمد، مسند أبي هريرة، ح (٧١٢٩).

فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴾ [النحل: ١١٢]، والشكر وضع النعمة حيث أراد المنعم، وحسن التصرف بها ابتغاء مرضاته؛ وسئل بعض الصلحاء عن الشكر لله فقال: (ألا تتقوى بنعمه على معاصيه). وحكي عن داود عليه السلام أنه قال: (أي رب كيف أشكرك، وشكري لك نعمة مجددة منك علي؟ قال: يا داود الآن شكرتني). قلت: فحقيقة الشكر على هذا الاعتراف بالنعمة للمنعم. وألا يصرفها في غير طاعته؛ وأنشد الهادي وهو يأكل:

أنالك رزقه لتقوم فيه
بطاعته وتشكر بعض حقه
فلم تشكر لنعمته ولكن
قويت على معاصيه برزقه

فغص باللقمة، وخنقته العبرة. وقال جعفر الصادق: إذا سمعت النعمة الشكر فتأهب للمزيد[١]؛ لذلك ختم الله آيات الصيام بقوله: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [البقرة: ١٨٥].

وورد في القرآن من دعاء الأنبياء الصالحين أن يلهمهم الله تعالى شكر نعمه عند رؤيتها كقول سليمان: ﴿أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ ﴾ [النمل: ١٩] وورد أن النبي ﷺ قال: «رب اجعلني لك شكارا» وجاء في وصيته عليه الصلاة والسلام لمعاذ الاستعانة بالله على شكره فقال: «يا معاذ والله إني لأحبك. أوصيك يا معاذ، لا تدعن في دبر كل صلاة تقول: اللَّهُمَّ أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك»[٢].

٧. رمضان مدرسة الصبر

رمضان شهر الصبر؛ والصبر حبسٌ للنفس، والصائم يحبس نفسه عن مشتهاها من المأكل والمشرب والنساء؛ طاعةً لله تعالى، قال سبحانه في الحديث القدسي: «يدع طعامه وشرابه وشهوته من أجلي»[٣]، ويصبر على الصيام والقيام والتلاوة والدعاء حسبة لله تعالى لذلك قال في الحديث القدسي: «الصوم لي وأنا أجزي به»، ويصبر على الابتلاءات المؤلمة بما يحصل من تألم من أثر الجوع والعطش وقد قال في جزاء الصبر ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [الزمر: ١٠]، فعلم بذلك أن من الصابرين الذين يُوفون أجورهم بغير حساب: الصائمين، الذين صبروا عن شهواتهم؛ طاعة لله تعالى، وتقربًا إليه، فما أعظمها من منزلة ينالها الصائمون أن توفى لهم أجورهم بغير حساب! فالله يتولى جزاءهم بلا مقدار يحدده، ولا ثواب يسميه؛ والكريم يجزي على قدر كرمه، وخزائنه لا تنفد، وعطاؤه لا ينقطع، وقد جاء التوجيه القرآني بالاستعانة بالصبر والصلاة لما لهما من أثر في تربية النفوس فقال: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴾ [البقرة: ٤٥]، قال الطبري: (أمرهم بالصبر على ما كرهته نفوسهم من طاعة الله تعالى، وترك معاصيه، وأصل الصبر: منع

(١) القرطبي ـ الجامع لأحكام القرآن، (٣٤٣/٩).

(٢) مسند الإمام أحمد، من حديث معاذ بن جبل، ح (٢٢١١٩).

(٣) مسند الإمام أحمد، مسند أبي هريرة، ح (٩١١٢).

النفس محابّها، وكفّها عن هواها؛ ولذلك قيل للصابر على المصيبة: صابر؛ لكفّه نفسه عن الجزع، وقيل لشهر رمضان: شهر الصبر؛ لصبر صائمه عن المطاعم والمشارب نهارًا)[١]، وقد جاء في السنة النبوية النصُ الصريحُ على تسميةِ رمضان بشهر الصبر، فقد روى أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ أنه قال: «صوم شهر الصبر وثلاثة أيامٍ من كل شهر صوم الدهر»[٢]، وجاء رجل من باهلة إلى النبي ﷺ قد هَزُل جسده، وتغير لونه، من ديمومته على الصيام، فقال له النبي ﷺ: «من أمرك أن تعذب نفسك؟ صم شهر الصبر رمضان، وثلاثة أيام من كل شهر»[٣]، وجاء في حديث آخر عن النبي ﷺ قال: «من سره أن يذهب كثير من وَحَرِ صدره فليصم شهر الصبر وثلاثة أيام من كل شهر»[٤]، وفي حديث أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «صوم شهر الصبر وثلاثة أيام من كل شهر صوم الدهر، ويُذهب مَغَلَّة الصدر، قال: قلت: وما مَغَلَّةُ الصدر؟ قال: رجس الشيطان»[٥].

فما أحوجنا إلى الصبر في هذا العصر الذي اكفهرت فيه الدنيا، واحلولك الظلام، وتكالب الأعداء، فهو عدتنا التي تسبق كل إعداد، وسلاحنا في شدائد الأهوال، وأهم مقومات النصر لقوله عليه السلام: «إن النصر مع الصبر»، وهو الفلاح في الدنيا والأخرة قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾ [آل عمران: ٢٠٠] ولهذا نشعر أن للصوم مذاقا خاصا وهو يربينا على التحمل والمصابرة على أزمات الحياة، لأن الصبر قبس مضيء ونور هادي في ظلمة الليل البهيم.

(١) الطبري ـ تفسير الطبري، (١١/١).

(٢) سنن النسائي، باب ذِكْرُ الِاخْتِلَافِ عَلَى أَبِي عُثْمَانَ فِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ فِي صِيَامِ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ، ح (٢٤٠٨).

(٣) سنن ابن ماجه، كتاب الصيام، باب صيام أشهر الحرم، ح (١٧٤١).

(٤) مسند الإمام أحمد، مسند البصريين، من حديث الأعرابي، ح (٢٠٧٣٧).

(٥) مسند الإمام أحمد، مسند الأنصار، من حديث أبي ذر الغفاري، ح (٢١٣٦٤).

العلاقات الاجتماعية في الإسلام

الباحث: عامر خطاب ـ ماجستير في التربية الإسلامية

أصبح الاهتمام بقضايا المجتمع ودراسة الظواهر الاجتماعية علمًا له أصوله ومصادره التي تتطور مع تطور الحياة بشكل مستمر، فبناء الأسرة على أسس تربوية سليمة، وفهم المشكلات التي يقع فيها الأزواج في مرحلة تكوين الأسرة أو مشكلات التربية بعد وجود الأبناء، ودراسة الظواهر السلوكية والمظاهر الدينية والعقائد والأفكار والثقافات والطبقات الاجتماعية والعرقية؛ تحتاج إلى وعي وعلم في كيفية التعامل معها وفهم فروعها وتفاصيلها.

وتؤكد أغلب الدراسات التربوية والاجتماعية أن الإنسان اجتماعي بطبعه يميل بفطرته إلى التكامل مع أبناء جنسه، وتدفعه حاجاته إلى التعامل مع البشر والتعاون معهم لتحقيق مصالحه وتلبية احتياجاتهم واحتياجاته.

إن علم الاجتماع يتناول العلاقات الاجتماعية على مستوى الأفراد أو المؤسسات من حيث تحقيق المصالح الدنيوية فقط بل ربما بفصلها عن الدين وإظهار العداء له[١]، أما الشريعة الإسلامية فقد تميزت بربط العلاقات الاجتماعية في الدنيا بالثواب والعقاب في الآخرة، ووضعت مجموعةً من الضوابط والأطر التي تسهم في البناء السليم لهذه العلاقات، فهي تحمل المؤمن على المراقبة الذاتية في تكوين علاقاته، فيدرك ما فيها من بُعد إيماني وما يترتب عليها في الآخرة من جزاء، كما أن مراعاة هذه الضوابط تقوي صف المؤمنين، وتحمي الأمة من الفرقة والشتات، ومن هنا جاء هذا البحث ليبين أهمية العلاقات الاجتماعية في الإسلام وتنوعها وما يترتب على كل نوعٍ من ثواب أو عقاب.

أولاً: أهمية بناء العلاقات الاجتماعية في الإسلام

العلاقات الاجتماعية: هي الروابط والآثار المتبادلة التي تنشأ نتيجة اجتماع الناس وتبادل مشاعرهم واحتكاكهم ببعضهم، ومن تفاعلهم في بوتقة المجتمع[٢].

وقد بيَّن الله عز وجل أن العلاقة بين البشر تقوم على أساس التعارف والتكامل، وأن ميزان الأفضلية هو التقوى والعمل الصالح، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ

(١) المطيري، منصور زويد، الصياغة الإسلامية لعلم الاجتماع الدواعي والمكان ص٧٩، سلسلة كتاب الأمة الصادر عن وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف بقطر، العدد ٣٣.

(٢) فياض، حسام الدين، العلاقات الاجتماعية، ص٢.

وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [الحجرات: ١٣].

ومن هنا يقرر ابن خلدون أن الإنسان مدني بالطبع، وهذا يعني أنه لا يمكن للفرد أن يعيش حياته بعيدًا عن البشر، فلا يتم وجوده إلا مع أبناء جنسه، وذلك لما هو عليه من العجز عن استكمال وجوده وحياته، فهو محتاج إلى المعونة في جميع حاجاته أبدًا بطبعه(١).

العلاقات الاجتماعية بين المسلمين في القرآن الكريم:

هناك دلائل عديدة تؤكد ربانية النظام الاجتماعي، من ذلك تلك النصوص الشرعية التي تطلب من المجتمع المسلم التطبيق الكامل لتشريعات الوحيين ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدْخُلُواْ فِي ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً ﴾ [البقرة: ٢٠٨]، يقول ابن كثير: يقول الله تعالى آمرًا عباده المؤمنين به المصدّقين برسوله أن يأخذوا بجميع عرى الإسلام وشرائعه، والعمل بجميع أوامره وترك جميع زواجره ما استطاعوا من ذلك(٢)، فالنص القرآني واضح في أنه يطالب المجتمع المسلم أن يلتزم بالنظام الرباني الذي شرعه الله تعالى للعباد، وأن يتم تطبيق النظام في المجتمع بصورة كاملة، وبهذا يكون مجتمعًا إسلاميًّا مسالِمًا ربانيًّا(٣).

وأقام الإسلام العلاقة بين المؤمنين على أساس متين من الأخوَّة، قال الله عز وجل: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ [الحجرات: ١٠] قال الرازي قال بعض أهل اللغة: الإخوة جمع الأخ من النسب، والإخوان جمع الأخ من الصداقة، فالله تعالى قال: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ تأكيدًا للأمر وإشارةً إلى أن بينهم ما بين الإخوة من النسب، قال قائلهم:

أبي الإسلام لا أبَ لي سواه

إذا افتخروا بقيسٍ أو تميم(٤)

العلاقات الاجتماعية بين المسلمين في السنة:

بيَّنت السنة النبوية أن تطبيق المجتمع المسلم للمنهج الرباني الذي طبَّقه النبي ﷺ وأصحابه يشكّل الضمانة له من الضلال والتراجع والانحلال، ففي الحديث الصحيح قال النبي ﷺ: «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، عضُّوا عليها بالنواجذ»(٥) وقال النبي ﷺ في الحديث الصحيح: «تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما: كتاب الله وسنة نبيه»(٦).

ولعل هذا هو سبب الخيرية التي خصّ النبي ﷺ بها القرون الأولى عندما قال: «خير أمتي القرن الذين يلوني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم»(٧)، وهو ما ميّز الله عز وجل به السابقين عندما قال: ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝١٠ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۝١١ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝١٢ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٣ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ ۝١٤ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ۝١٥ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَٰبِلِينَ ﴾ [الواقعة: ١٠ ـ ١٦] ثم

(١) ابن خلدون، المقدمة، ص٤٠٤.
(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج١، ص ٥٦٥.
(٣) خطاطبة، عدنان، أصول التربية الإسلامية ص٢١٣.
(٤) الرازي، مفاتيح الغيب ج٢٨، ص١٠٦.
(٥) مسند أحمد، رقم الحديث ١٧١٤٤.
(٦) موطأ مالك، رقم الحديث: ٦٧٨.
(٧) صحيح مسلم، رقم الحديث: ٢٥٣٣.

بيَّن سبب هذا الأجر الكبير فقال: ﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [الواقعة: ٢٤].

لقد جاءت التوجيهات النبوية والأحاديث الكثيرة التي تحثُّ المسلم على بناء العلاقات الإيجابية، وتقوي صف المؤمنين وتجعله جزءًا من الجماعة الفاعلة بعيدًا عن الفردية والانطواء، ومن هذه الأحاديث:

١ـ عن النعمان بن بشير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى»(١).

٢ـ عن سهل بن سعد الساعدي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «المؤمن مألفة، ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف»(٢).

ثانيًا: تنوع العلاقات الاجتماعية في الإسلام

يمثِّل القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة مصدرينِ للمسلم في استقصاء القيم التربوية والاجتماعية، فكانت التوجيهات النبوية في دعوةٍ مستمرةٍ إلى التفاعل بين العناصر الاجتماعية المختلفة، وتوثيق الصلات والروابط بين الشرائح الاجتماعية في منهج قويم متكامل قائم على أسس عقدية وتشريعية وأخلاقية تتفق ومتطلبات الفطرة الإنسانية(٣)، ومن هنا فقد تنوعت العلاقات الاجتماعية في الإسلام، ولعلنا نلخّص بعضها في الآتي:

العلاقة مع الوالدين:

أولى الإسلام نظام الأسرة اهتمامًا بالغًا، فجاءت أحاديث النبي ـ ﷺ ـ وتوجيهاته تنظم علاقة الأبوَّة والبنوَّة، وقد صدَّر البخاري كتاب الأدب في صحيحه ببرّ الوالدين، فذكر جملةً من الأحاديث التي تدور حول هذه العلاقة، وهي تمثِّل وحدةً موضوعيةً متكاملةً إلى حدٍّ ما، بلغت أحد عشر حديثًا تحت ثمانية أبواب، وصدَّر كتاب الأدب بما رواه عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه سأل النبي ﷺ «أي العمل أحب إلى الله؟ قال: الصلاة على وقتها، قال ثم أي؟ قال: بر الوالدين، قال: ثم أي؟ قال: الجهاد في سبيل الله»(٤).

ويعد هذا الحديث أساسًا في بناء العلاقات، فالصلاة صلة بالله تعالى، وبر الوالدين علاقة مع المسلمين لأن من يبرهما يبر غيرهما، والجهاد علاقة مع الكفار، وتخصيص هذه الأمور الثلاثة لأنها عنوان على ما سواها من الطاعات، فإن من ضيَّع الصلاة المفروضة حتى يخرج وقتها من غير عذر مع خفة مؤنتها عليه وعظيم فضلها فهو لما سواها أضيع، ومن لم يبر والديه مع وفور حقهما عليه كان لغيرهما أقل برًّا، ومن ترك جهاد الكفار مع شدة عداوتهم للدين كان لجهاد غيرهم من

(١) صحيح مسلم، رقم الحديث: ٢٥٨٦.
(٢) مسند أحمد، تتمة مسند الأنصار، رقم الحديث: ٢٢٨٤٠.
(٣) الهزايمة، لؤي عباس، الجانب الاجتماعي في كتاب الأدب من صحيح الإمام البخاري، مجلة البيان، العدد ١٦١، ص١٢.
(٤) البخاري، صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب بر الوالدين، رقم الحديث: ٥٩٧٠.

الفساق أترك[1].

وفي الحديث التالي خصَّ الأم بالبر بعد أن حضَّ على برهما معًا، وأورد حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: «جاء رجل إلى رسول الله ـ ﷺ ـ فقال: يا رسول الله، من أحق الناس بحسن صحابتي؟ قال: أمك، قال: ثم من؟ قال: ثم أمك، قال: ثم من؟ قال: ثم أمك، قال: ثم من؟ قال: ثم أبوك»[2].

وبعد التوصية ببرّ الوالدين وبيان عظيم حقهما شرع في بيان آليات البر، فقال: (باب لا يسبُّ الرجل والديه) بمعنى ألا يكون سببًا إلى سبِّهما[3]، وهو الحد الأدنى من البر، وبعد أن بين آليات البر شرع في بيان أثر ذلك، فقال: (باب إجابة دعاء من برَّ والديه)، ولما بيَّن الموقف الإيجابي الذي ينبغي أن يكون عليه المسلم تجاه والديه، بيَّن الموقف السلبي وهو العقوق، وسلك فيه مسلك الترهيب فقال: (باب عقوق الوالدين من الكبائر)، وبعد أن بين على صورة قاعدة عامة وجوب بر الوالدين وفضل القيام عليهما، تطرق إلى بعض أحكامهما فقال: (باب صلة الوالد المشرك)، وقال: (باب صلة المرأة أمها ولها زوج).

وفي ثنايا هذه الأبواب تطرق إلى ما ينبغي على الوالد تجاه ولده، فأورد حديث تحريم وأد البنات، تلك العادة الاجتماعية السيئة التي كانت منتشرة في بعض أوساط المجتمع الجاهلي، عن المغيرة بن شعبة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «إن الله حرم عليكم عقوق الأمهات ومنعًا وهات ووأد البنات، وكره لكم قيل وقال وكثرة السؤال وإضاعة المال»[4].

العلاقة مع الأرحام:

جاءت الأحاديث النبوية التي تؤكد ضرورة صلة الأرحام وما يترتب عليها من خير في الدنيا وأجر وثواب في الآخرة، وقد أوردها البخاري تحت (باب فضل صلة الرحم)، ومنها عن أبي أيوب الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رجلًا قال: يا رسول الله أخبرني بعمل يدخلني الجنة، فقال القوم: ما له ما له؟ فقال رسول الله ﷺ: «أرب ما له، تعبد الله لا تشرك به شيئًا، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصل الرحم. ذرها، قال: كأنه كان على راحلته»[5].

وبين النبي ﷺ أن صلة الأرحام لا تكون مكافأة بأن يقتصر في صلته على من يصله، فذلك القصاص، وإنما يصل من يقطعه، قال عليه الصلاة والسلام: «ليس الواصل بالمكافئ، ولكن الواصل الذي إذا قطعت رحمه وصلها»[6]. قال ابن حجر: «قوله ليس الواصل بالمكافئ أي الذي يعطي

(١) ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، ج٦، ص٧.

(٢) البخاري، صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب بر الوالدين، رقم الحديث: ٥٩٧١.

(٣) ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، ج١٠، ص٤١٧.

(٤) البخاري، صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب عقوق الوالدين من الكبائر، رقم الحديث: ٥٩٧٥. للتوسع في الموضوع: الهزايمة، لؤي عباس، الجانب الاجتماعي في كتاب الأدب في صحيح البخاري، مجلة البيان، العدد ١٦١، ص ١٢.

(٥) البخاري، صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب صلة الرحم، رقم الحديث: ٥٩٨٦.

(٦) المصدر السابق، باب ليس الواصل بالمكافئ، رقم الحديث: ٥٩٩١.

لغيره نظير ما أعطاه ذلك الغير، وقد أخرج عبد الرزاق عن عمر موقوفًا: ليس الوصل أن تصل من وصلك، ذلك القصاص، ولكن الوصل أن تصل من قطعك»[١].

وأمر الإسلام بصلة الوالد المشرك والأخ المشرك، عن أسماء بنت أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: (أتتني أمي راغبة في عهد النبي ﷺ، فسألت النبي ﷺ: أصلها؟ قال: نعم، قال ابن عيينة: فأنزل الله تعالى فيها: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾ [الممتحنة: ٨] [٢] وجعل صلة الأرحام سببًا من أسباب الرزق، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من سرَّه أن يبسط له في رزقه وأن ينسأ له في أثره فليصل رحمه»[٣] وحذر من قطيعة الرحم، قال عليه الصلاة والسلام: «لا يدخل الجنة قاطع»[٤].

العلاقة مع المجتمع:

قرر الإسلام أن المؤمنين إخوة، قال الله عز وجل: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠]، وهذه الأخوة واضحة في تعامل المسلمين بعد الهجرة النبوية، فقد آخى النبي ﷺ بين المهاجرين والأنصار فقال: «فلان أخ لفلان، وفلان أخ لفلان...» وبناء على هذه الأخوة كان الصحابي الأنصاري يقاسم أخاه المهاجر بماله، وأحيانًا يعرض عليه أن يطلق له إحدى زوجاته، وهذا كله يؤكد أواصر العلاقات الاجتماعية وضرورة أن يعيش المسلم جزءًا من أمَّة.

فالمسلم الواعي لأحكام دينه اجتماعي بطبعه لأنه صاحب رسالة في الحياة، وأصحاب الرسالات لا بد لهم من الاتصال بالناس، يخالطونهم ويعاملونهم ويبادلونهم الأخذ والعطاء، والإنسان المسلم اجتماعي من الطراز الرفيع بما لقن من أحكام دينه الحق، وبما تمثل من أخلاقه الإنسانية الرفيعة النبيلة التي دعا إليها وحضَّ على التخلق بها في مجال التعامل الاجتماعي [٥].

وجاءت النصوص القرآنية والأحاديث النبوية الكثيرة التي تنظم علاقة المسلم بالمجتمع المسلم بما لا يتسع المجال لعرضها، فحرم الإسلام الكبر والسخرية والاستهزاء والهمز واللمز بأحد المؤمنين، وأمر بخفض الجناح والرأفة واللين، وحث على التعاون والتراحم والبذل والإحسان إلى الجار والفقير والأرملة والمسكين، وأوصى باليتيم وأمر بالرفق بالأسير، وتتأكد هذه المعاني في واقع الثورة السورية اليوم حيث يحتاج الناس إلى مزيد من التضامن والتعاون وإيجاد آليات وحلول لمستقبل مئات الآلاف من الأرامل والأيتام، وعلاج الآلاف ممن سببت له الحرب إعاقة جسدية أو نفسية، وإيواء الآلاف من النازحين والمشردين، وبالجملة فما من فضيلة في المجتمع إلا وحثَّ الإسلام عليها ودعا إليها، وما من سيئةٍ إلا ونهى

(١) ابن حجر، فتح الباري، ج١٠/ص٤٢٣.
(٢) البخاري، صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب بر الوالد المشرك، رقم الحديث: ٥٩٧٨.
(٣) المصدر السابق، باب من بسط له في الرزق بصلة الرحم، رقم الحديث: ٥٩٨٥.
(٤) المصدر نفسه، باب إثم القاطع، رقم الحديث: ٥٩٨٤.
(٥) محمد علي الهاشمي، شخصية المسلم كما يصوغها الإسلام ص١٦٢.

عنها وحذر منها، وفي هذا دلالة واضحة على أن الإنسان في تاريخه الطويل لم يحظ بمكونات الشخصية الفاضلة المتكاملة كما حظي الإنسان المسلم حين تلقى إشراقة الوحي والهداية الربانية من نصوص القرآن الكريم والسنة المطهرة؛ ذلك أن الإسلام لم يحفل بحشو عقل الإنسان بالمعارف الفلسفية كما صنع اليونان، ولا بالروحانيات المغرقة في الوهم كما فعل الهنود، ولا بتربية الجسم الرياضية كما فعل الرومان، ولا بالفلسفة المادية النفعية، وإنما اختط الإسلام منهجًا متوازنًا متكاملًا في تربية الإنسان آخذًا بعين الاعتبار جسمه وعقله وروحه؛ انطلاقًا من نظرته القويمة للإنسان على أنه مخلوق مكون من جسم وعقل وروح[1].

ثالثًا: الثواب المترتب على العلاقات الاجتماعية في اليوم الآخر

إن سائر الأعمال الصالحة من عبادات أو أعمال خير لها دور في نجاة المؤمن من أهوال يوم القيامة، فسائر الأعمال الصالحة هي طريق المؤمن إلى الجنة، وسوف نستعرض نماذج من الأعمال التي تنظم العلاقات الاجتماعية ويترتب عليها ثواب في ساحة الحشر قبل أن يتجاوز المرء ساحة الحساب إلى مستقره الأخير.

١ـ القيام بحقوق المجتمع:

عن أبي هريره رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النبي ﷺ قال: «سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: الإمام العادل، وشاب نشأ في عبادة ربه، ورجل قلبه معلق في المساجد، ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه، ورجل طلبته امرأة ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله، ورجل تصدق أخفى حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه، ورجل ذكر الله خاليًا ففاضت عيناه»[2].

هؤلاء السبعة اختلفت أعمالهم في الصورة وجمعها معنى واحد هو مجاهدتهم لأنفسهم ومخالفتهم لأهوائها، وذلك يحتاج إلى رياضة شديدة وصبر على الامتناع مما يدعو إليه داعي الشهوة أو الغضب أو الطمع، وفي تجشم ذلك مشقة شديدة على النفس، ويحصل لها به تألم عظيم، فإن القلب يكاد يحترق من حر نار الشهوة أو الغضب عند الهيجان إذا لم يُطفَأْ ذلك ببلوغ الغرض، فكان ثواب الصبر على ذلك أنه إذا اشتد الحر في الموقف، ولم يكن للناس ظل يظلهم ويقيهم حر الشمس كان هؤلاء السبعة في ظل الله عز وجل، فلم يجدوا لحر الموقف ألَمًا جزاءً لصبرهم على حر نار الشهوة أو الغضب في الدنيا[3]، ولا يخفى أن أغلب هذه الأعمال التي استحقوا بها المقام في ظل عرش الرحمن هي أعمال تتعلق بالمجتمع وتنظيم العلاقة مع الآخرين.

٢ـ إطعام الجائع والمسكين:

وصف الله عزَّ وجلَّ عباده المؤمنين بأنهم:

(١) المرجع السابق ص٣٢٤.

(٢) البخاري، صحيح البخاري، كتاب الأذان، باب من جلس في المسجد ينتظر الصلاة، رقم الحديث: ٦٦٠.

(٣) ابن رجب الحنبلي، فتح الباري شرح صحيح البخاري، ج٦، ص٤٦.

﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝٨ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ۝٩ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا﴾ [الإنسان: ٨ ـ ١٠]

قال البغوي: «يعني أن إحساننا إليكم للخوف من شدة ذلك اليوم لا لطلب مكافأتكم»(١) وكان جزاؤهم على ذلك أن وقاهم الله أهوال يوم القيامة ﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾ [الإنسان: ١١] كما جاء في الحديث عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «من أطعم الجائع أظله الله في ظل عرشه»(٢).

٣ ـ التجاوز عن المعسر:

عن أبي اليسر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «من أحب أن يظله الله في ظله فلينظر معسرًا أو ليضع عنه»(٣) قال السندي: («فلينظر» من الإنظار «أو ليضع له» أي الدَّين)(٤).

٤ ـ إزالة الكربة عن المكروب:

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «من نفَّس عن مؤمنٍ كربةً من كرب الدنيا نفَّس الله عنه كربةً من كرب يوم القيامة، ومن يسَّر على معسر يسَّر الله عليه في الدنيا والآخرة، ومن ستر مسلمًا ستره الله في الدنيا والآخرة، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه»(٥)

(١) البغوي، لباب التأويل في معاني التنزيل، ج٤، ص٣٧٩.
(٢) الطبراني، مكارم الأخلاق، ج١، ص٣٧٣.
(٣) ابن ماجه، سنن ابن ماجه، كتاب الصدقات، باب إنظار المعسر، رقم الحديث: ٢٤١٩.
(٤) السندي، حاشية السندي على سنن ابن ماجه، ج٢، ص٧٨.
(٥) مسلم، صحيح مسلم، كتاب الذكر...، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن، رقم الحديث: ٢٦٩٩.

ومعنى نفَّس كربة: أزالها(٦).

٥ ـ مساعدة الفقراء والمحتاجين:

عن عقبه بن عامر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كل امرئ في ظل صدقته حتى يفصل بين الناس ـ أو قال: يحكم بين الناس ـ قال يزيد: وكان أبو الخير لا يخطئه يوم إلا تصدق فيه بشيء ولو كعكة أو بصلة أو كذا»(٧).

رابعًا: العقاب المترتب على سوء العلاقات الاجتماعية:

حرص الإسلام على بناء العلاقات الاجتماعية السليمة، ورتب عليها الأجر والثواب وجعلها من أسباب النجاة يوم القيامة، وحذر من كل ما يوهن الأمة ويضعف صفها ويشتت أفرادها، فنهى عن التنازع والخلاف قال تعالى: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦].

ورتب الإسلام العقاب على سوء العلاقات الاجتماعية، وجعل الإضرار بها سببًا للوقوع في الهلاك والتعرض يوم القيامة للعذاب، وسوف نعرض بعض النماذج التي تسيء إلى العلاقات الاجتماعية ويترتب عليها في الآخرة نوع من العقاب:

١ـ نشر الكفر والضلال:

تنتشر بين بعض الشباب موجة من الإلحاد

(٦) النووي، شرح صحيح مسلم، ج١٧، ص٢١.
(٧) أحمد، مسند أحمد، مسند الشاميين، رقم الحديث: ١٧٣٣٣.

وإنكار وجود الله عز وجل خاصة بعض أولئك الذين هاجروا إلى بلاد غير مسلمة نتيجة للظروف العصيبة التي تمر بها بلادهم، فأصابتهم حالة من السخط ورد الفعل على ما كانوا يؤمنون به من المبادئ وما يحملونه من القيم والدين، وصدَّق عليهم إبليس ظنه فاتبعوه وراحوا يكتبون على وسائل التواصل وينشرون في منصاتهم وقنواتهم سخريتهم واستهزاءهم بدين الله عز وجل غير مبالين بمن سيتأثر بهذه المنشورات، قال الله عز وجل: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۙ قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾ [النحل: ٢٤ ـ ٢٥]

وعن أنس بن مالك عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أيما داعٍ دعا إلى ضلالة فاتُّبِع فإن له مثل أوزار من اتبعه، ولا ينقص من أوزارهم شيء، وأيما داع دعا إلى هدى فاتُّبِع فإن له مثل أجور من اتبعه، ولا ينقص من أجورهم شيء»(١).

والمعنى: أن من سنَّ سنة قبيحة عظم عقابه حتى إن ذلك العقاب يكون مساويًا لكل ما يستحقه كل واحد من الأتباع، قال الواحدي: ولفظة: «من» في قوله: ﴿وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم﴾ ليست للتبعيض؛ لأنها لو كانت للتبعيض لخفَّ عن الأتباع بعض أوزارهم، وذلك غير جائز لقوله عليه السلام: «من غير أن ينقص من أوزارهم شيء» ولكنها للجنس أي: ليحملوا من جنس أوزار الأتباع(٢).

٢ـ الغدر:

الغدر هو نقض العهد وترك الوفاء(٣)، والغدر الخيانة يقال: لست منه على ثقة يغدر غدرًا(٤)، وقد حذر الإسلام من الغدر بالمؤمن وخيانته، عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال قال رسول الله ﷺ: «إذا جمع الله الأولين والآخرين يوم القيامة يرفع لكل غادر لواء، فقيل: هذه غدرة فلان بن فلان»(٥) لكل غادر لواء أي: علامة يشتهر بها في الناس، والغادر من ينقض العهد، واللواء الراية العظيمة تكون لرئيس الجيش ويكون الناس تبعًا له، ولا غادر أعظم غدرًا من أمير عامة لأنه يتعدى ضرر غدره إلى خلق كثيرين(٦).

٣ـ الاعتداء على أعراض المجاهدين:

عن سليمان بن بريدة عن أبيه قال قال رسول الله ﷺ: «حرمة نساء المجاهدين على القاعدين كحرمة أمهاتهم، وما من رجل من القاعدين يخلف رجلًا من المجاهدين في أهله فيخونه فيهم إلا وُقِفَ له يوم القيامة، فيأخذ من عمله ما شاء، فما ظنكم؟»(٧) ومعنى (حرمة نساء المجاهدين

(١) ابن ماجه، سنن ابن ماجه، كتاب الإيمان...، باب من سن سنة حسنة...، رقم الحديث: ٢٠٥.

(٢) الرازي، مفاتيح الغيب، ج٢٠، ص١٩٧.

(٣) ابن منظور، لسان العرب، ج٥، ص٨.

(٤) الزبيدي، تاج العروس، ج١٣، ص ٢٠٣.

(٥) مسلم، صحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب تحريم الغدر، رقم الحديث: ١٧٣٥.

(٦) السيوطي، الديباج على شرح صحيح مسلم بن الحجاج، ج٤، ص٣٤٨.

(٧) مسلم، صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب حرمة نساء المجاهدين، رقم الحديث: ١٨٩٧.

على القاعدين كحرمة أمهاتهم) أنها في شيئين: أحدهما تحريم التعرض لهم بريبة من نظر محرم وخلوة وحديث محرم وغير ذلك، والثاني برهنَّ والإحسان إليهن وقضاء حوائجهن التي لا يترتب عليها مفسدة ولا يتوصل بها إلى ريبة [١].

٤ـ الاعتداء على المال العام:

عن أبي حميد الساعدي قال: «استعمل رسول الله ﷺ رجلًا من الأَزْد يقال له ابن اللتبية على الصدقة، فلما قدم قال: هذا لكم، وهذا لي أُهدي لي، قال: فقام رسول الله ﷺ على المنبر، فحمد الله وأثنى عليه وقال: ما بال عامل أبعثه، فيقول: هذا لكم، وهذا أهدي لي، أفلا قعد في بيت أبيه أو في بيت أمه حتى ينظر أيهدى إليه أم لا! والذي نفس محمد بيده، لا ينال أحد منكم منها شيئًا إلا جاء به يوم القيامة يحمله على عنقه؛ بعير له رغاء أو بقرة لها خوار أو شاة تَيْعَر، ثم رفع يديه حتى رأينا عَفْرَتي إبطيه، ثم قال: اللَّهُمَّ هل بلغت. مرتين»[٢] ففيه بيان أن هدايا العمال حرام وغلول لأن العامل خان في ولايته وأمانته؛ لهذا ذكر في الحديث عقوبته وحمله ما أهدي إليه يوم القيامة كما ذكر مثله في الغالِّ، وقد بين ﷺ في الحديث نفسِه السبب في تحريم الهدية عليه، وأنها بسبب الولاية[٣].

٥ـ الاستيلاء على أرض الغير:

عن أبي سلمة بن عبد الرحمن أنه دخل على عائشة وهو يخاصم في أرض، فقالت: يا أبا سلمة، اجتنب الأرض؛ فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من ظلم قيد شبر من أرض طوِّقه يوم القيامة من سبع أرضين»[٤] قال الخطابي: قوله «طوّقه» له وجهان: أحدهما أن معناه أنه يكلف نقل ما ظلم منها في القيامة إلى المحشر ويكون كالطوق في عنقه لا أنه طوق حقيقة، الثاني معناه أنه يعاقب بالخسف إلى سبع أرضين، أي فتكون كل أرض في تلك الحالة طوقًا في عنقه، وهذا يؤيده حديث ابن عمر ثالث أحاديث الباب بلفظ: «خسف به يوم القيامة إلى سبع أرضين»[٥].

٦ـ القتل العمد:

عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عن النبي ﷺ قال: «يجيء المقتول بالقاتل يوم القيامة ناصيته ورأسه في يده وأوداجه تشخب دمًا، يقول: يا رب قتلني، حتى يدنيه من العرش، قال: فذكروا لابن عباس التوبة، فتلا هذه الآية: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٣] قال: ما نسخت منذ نزلت، وأنى له التوبة!»[٦].

٧ـ ترك العدل بين الزوجات:

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النبي ﷺ قال:

(١) النووي، شرح صحيح مسلم، ج١٣، ص٤٢.
(٢) مسلم، صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب تحريم هدايا العمال، رقم الحديث: ١٨٣٢.
(٣) النووي، شرح صحيح مسلم، ج١٢، ص٢١٩.
(٤) البخاري، صحيح البخاري، كتاب المظالم والغصب، باب إثم من ظلم شيئاً من الأرض، رقم الحديث: ٢٤٥٤.
(٥) ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، ج٥، ص١٠٤.
(٦) النسائي، السنن الصغرى، كتاب تحريم الدم، باب تعظيم الدم، رقم الحديث: ٤٠٠٥.

«من كانت له امرأتان فمال إلى إحداهما جاء يوم القيامة وشقه مائل»[1].

٨ ـ التكبر على الخلق:

عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده، عن النبي ﷺ قال: «يحشر المتكبرون يوم القيامة أمثال الذرِّ في صورة الرجال، يغشاهم الذل من كل مكان، يساقون إلى سجن من جهنم يسمَّى بولَس، تعلوهم نار الأنيار، ويسقون من عصارة أهل النارِ طينةِ الخبال»[2].

من خلال هذه النماذج وما ترتب عليها من جزاء يظهر جليًّا كيف نظم الإسلام العلاقات الاجتماعية وربطها بالثواب والعقاب في الآخرة، فما أعده الله عز وجل للمحسنين في علاقاتهم الاجتماعية من أهم الدوافع التي تنظم علاقاتنا وترقى بها نحو المثالية والاحترام، كما أن الإيمان بما توعد الله عز وجل به المسيئين في علاقاتهم من أهم الزواجر التي تنهى العبد المؤمن عن الطغيان والاعتداء.

خامسًا: النتائج والتوصيات

نخلص مما تقدم إلى جملة من النتائج والتوصيات نوضحها في الآتي:

أولًا: النتائج

١ـ تكامل التشريع الإسلامي، فقد نظم الإسلام كلًّا من العلاقات والمعاملات والعبادات.

٢ـ ربانية النظام الاجتماعي في الإسلام لأنه يقوم على أصل عقدي يربط العلاقات الاجتماعية بالثواب والعقاب عند الله عز وجل.

٣ـ ضرورة التكامل في المهمات المتعددة والمناشط والمواهب الإنسانية، فلا يمكن للفرد أن يحقق لنفسه كل حاجاته، ولكن الجماعة في الإسلام يتحقق في رحابها جميع معاني التكامل في الحياة والتكافل الذي يحقق مصالح الدنيا والآخرة.

٤ـ افتقار المجتمع الإسلامي إلى الثقافة الكافية في بناء العلاقات الاجتماعية، فينبغي أن ترتبط بالآخرة بدل أن تبقى ضمن إطار المصالح والعادات والأعراف.

ثانيًا: التوصيات

١ـ أن يهتم الباحثون بالنظام الاجتماعي في الإسلام.

٢ـ أن يركز الدعاة من خلال المحاضرات العلمية والدروس الدعوية على ربط العلاقات الاجتماعية بالثواب والعقاب عند الله عز وجل.

٣ـ تأطير النظام الاجتماعي الإسلامي ضمن قواعد وأسس ليصار إلى تدريسه في المعاهد والجامعات.

٤ـ إعداد البرامج التربوية التي تسهم في بناء العلاقات الاجتماعية على ضوء التعاليم الإسلامية وتطبيقها في المدارس والمعاهد العلمية والجامعات.

الاهتمام بعلم الاجتماع وتأصيله في ضوء الكتاب والسنة.

(١) أبو داود، سنن أبي داود، كتاب النكاح، باب القسم بين الزوجات، رقم الحديث: ٢١٣٣.

(٢) البخاري، الأدب المفرد، باب الكبر، رقم الحديث: ٥٥٧.

الخَلفُ الأَخيَار.. ومنهجُ التَربيةِ بتقويمِ المَسَار

د. عماد كنعان ـ أستاذ في جامعة كلس

أطلالٌ نحبُّها وتحبُّنا

هذا هو رجع صدى ذلكم العزف الروحي الذي أُنبِتنا عليه نباتًا حسنًا، إنها يا أُخَيَّ رحلة السنوات المؤنِسات بين أطياف المنبر وخواطر المحراب، هَلُمَّ يا رفيق المساجد ويا صاحب ذكريات الجلوس على الرُّكبِ في حفظ آي النَّبأ العظيم، تعال أيها الغالي نعيدها سيرتها الأولى، نسبر معًا رجع صدى أحاديث الروح يوم كنا نردد المتون ونذوب حبًّا في تلكم الشجون، هاك كلتا يديَّ يا أُخَيَّ فإنه لا يحِنُّ على العود غير قشوره كما علمتنا جدَّتنا الذاكرة الله كثيرًا، أتذْكُرُ؟ وصلوات ربي وسلامه على من نَبَسَتْ شفاهُهُ الشريفة بهذه الأحرف النورانية: «ألا إنَّ الناسَ دِثاري، والأنصارَ شِعاري، لو سلك الناسُ واديًا وسلكتِ الأنصارُ شعبةً لاتَّبعتُ شعبةَ الأنصارِ، ولولا الهجرةُ لكنتُ رجلًا من الأنصارِ، فمن وَلِيَ أمرَ الأنصارِ فليُحسن إلى مُحسنِهم وليتجاوز عن مُسيئِهم، ومن أفزَعَهم فقد أفزع هذا الذي بين هاتيْنِ. وأشار إلى نفسِه»[1].

دستور الرسول والتربية

إن القرآن الكريم دستور حياة، في أكنافه الثرَّة تنبض بعمران الدنيا مناهج حصيفة تبنى على المصالح المتحققة يقينًا، ومناهج شاملة أخرى ترسم معالم الطريق لآخرة آمنة في مقعد صدق عند مليك مقتدر، وفي النبأ العظيم بيان شافٍ لكل ما يحتاجه الإنسان من معرفة تحدد له أطر العلاقة بربه ونفسه ومجتمعه، وهو كتاب تربية وإعداد سماوي سامٍ تعضده ثوابت أركان الإيمان بالله رب العالمين، وكلمة الربِّ مشتقة من التربية وهي تحمل معاني العناية والرعاية والإصلاح والتأديب، وعليه فإن الله الخالق هو المربي المؤدب للإنسان من خلال الرسالات السماوية التي تضمنت أسمى القيم الأخلاقية وأرفعها، والتي ترتقي بالإنسان وتجعله مؤهلًا لمسؤولية خلافة الله في الأرض.

هذا، وإن رسول الله ـ ﷺ ـ هو المربي الأول لهذه الأمة بالقرآن، فقد أشرف على تربية جيل رشيد من الناس حتى غدا ذلك الجيل ظاهرة فريدة عجيبة لم يشهد التاريخ لها مثيلا حتى الآن، فاستطاع هذا الرجل العظيم أن يعيد بناء الإنسان العربي الجاهلي، ويخرجه من ظلمات التصحر الفكري والعقائدي والأخلاقي والاجتماعي إلى نور الإيمان والمعرفة وسمو الخلق وسماحة

(١) متفق عليه واللفظ لمسلم (١٠٦١/١).

الذات، قال سبحانه وتعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الجمعة: ٢].

> الأسباب المباشرة لشقاء العالم هي تلك النظم التي لم تثبت حتى الآن صلاحها لحل مشاكل الإنسانية

وبضدها تتميز الأشياء؛ يقول مصطفى السباعي: (فنحن في عصر اضطربت فيه النظم العالمية المتعددة، وعجزت عن إيجاد السلام والرخاء لشعوب العالم، ومهما يكن في قادة الأمم المسيطرة من عيوب أدت إلى هذا الاضطراب، فإن الذي لا ريب فيه عندنا أن الأسباب المباشرة لشقاء العالم هي تلك النظم التي لم تثبت حتى الآن صلاحها لحل مشاكل الإنسانية على وجه يريحها من الحروب والمنازعات، ويبعدها عن جو القلق الذي نعيش به في أعقاب الحروب العالمية الدامية بعد أن كانت تعيش خلال الحروب في جو قاتم من الدماء والدمار والخراب)[1].

إن العالم الإسلامي بحاجة اليوم وأكثر من أي وقت أَفَلَ إلى البحث عن سبل ووسائل تمنع السلوكيات الهدامة، التي استباحت الدماء واستحلت الأعراض ونهبت الخيرات كافة دون رادع إيمانيٍّ، وإن طريقها المعبد السريع الآمن هو سبر أغوار التربية الإسلامية المعجزة التي فتحت أمام العالم آفاقًا ومجالات لتعزيز الاستقامة بالدليل وتقويم الانحرافات بالشواهد، وكان لها الفضل في بناء حضارة إنسانية متكاملة ما تزال طلائع أنوارها بارزة في كل ميادين العلوم التربوية والتطبيقية والاجتماعية والإنسانية، فإن وفقنا في حمل مشعلها الوضاء أعدنا للحياة الآمنة المطمئنة مكانها بين المسلمين المتقهقرين خاصة والعالم التائه عامة.

مصطلح ومفهوم

استعمل العرب كلمة التقويم في معان عدة، وفيما يخص إيضاح موطن استعمال مصطلح التقويم في هذه المقالة فقد أشار مختار الصحاح إلى عين هذا المعنى بقوله: (قَوَّمَ المِعْوجَّ عدَّله وأزال عوجه، وتَقَوَّم الشَّيء تَعَدَّل واستوى، واستقام الشَّيْء اعتدل واستوى)[2].

لقد تعددت الإجراءات التي يعمد إليها المربون والمصلحون لرصد نتاجات جهودهم في التربية والتدريس والإصلاح، وتباينت إثر ذلك المصطلحات التي تحدد ماهية كل إجراء ووجهة عملياته التي تنشد تعريف المعلم والمربي مستوى إتقان المتعلمين لمحتوى موضوع التعلم، غير أن جميع هذه المصطلحات من قياس وتقييم وتقويم تجمعها مقاصد مشتركة تدور في فلك هدف عريض واحد هو تصحيح خُطَا السير نحو بناء

(١) مصطفى السباعي: السنة ومكانتها في التشريع، دار الوراق، ٢٠٠٠، ص ٨.

(٢) إبراهيم أنيس وآخرون: المعجم الوسيط، (٢/ ٢٧٢).

الإنسان وإعمار الأوطان.

وفي ضوء المعنى اللغوي والاصطلاحي السابق لكلمة التقويم يمكن تحديد المعنى الدقيق المراد هنا بالتعريف الآتي:

التقويم: هو جملة الأفكار والمعارف التي يقدمها أحد أطراف التواصل ـ الداعية، العالم، المربي، الوالد، المعلم، المدير، القائد، وغيرهم ـ إلى طرف آخر بغية تصويب مساره وتصحيحه وتطوير مستوى أدائه وتحسينه.

وقد أضيف مصطلح **المسار** في هذه الدراسة إلى مصطلح التقويم بغية الإشارة إلى ماهية العمل الذي يراد تقويم سبله بالتعديل أو التغيير، وذلك سواء كان المتعلم المستهدف بالتعليم ولدًا أو تلميذًا أو جنديًا أو موظفًا أو غيرهم.

إن منهج التربية بالتقويم توطن بقوة في منهج الخلف الصالح متمثِّلًا بمقاومة الأفعال المحظورة في الشريعة المنافية لمثل الإسلام العليا وبتعزيز ثقافة التغافر بين أبناء الرسالة الخاتمة وبصور أخرى، وفيما يأتي قطوف دانية من شهد ذلكم التاريخ المشرق:

أولاً: لقاء الشيخ الزَّهَاوي الحاسم مع الزعيم القاسم

إن الرمز الذي سنحط رحالنا على أعتاب مجده هو العلامة المجاهد الشيخ أَمجدُ بن مُحَمَّد الزَّهَاوي، وينتهي نسبه إلى الصحابي الجليل سيف الله المسلول خالد بن الوليد المخزوميّ رضي الله عن الصحابة والآل أجمعين.

ولد الفقيه الزَّهَاوي ببغداد سنة ١٨٨٣م، ونهل العلم من والده الشيخ الجليل مُحَمَّد بن سعيد الزَّهَاوي مفتي بغداد، ومات رحمه الله سنة ١٩٦٧م حيث ووري الثَّرى في مقبرة الإمام الأعظم ببغداد.

وقد حَدَثَ في العراق عقب ثورة ٢٤ تموز سنة ١٩٥٨م أَن خرج الإلحاديون في أكبر مظاهرة شهدتها بغداد آنذاك وهم يهتفون تأييدًا للرئيس عبد الكريم قاسم[١]، وبدا السفير السوفييتي في تلك المظاهرة مُبتَهِجًا إذ طَفِقَ يُلَوِّحُ بيده لجماهير المتظاهرين الداعمين لخلع عباءة الإسلام عن العراق وكأنه رئيس الدولة المُنتَخَب.

وقد سيطر دعاة الإلحاد على الشارع العراقي، وراحوا يُسَوِّقون ثقافة الكفر وأخلاقه عبر نوافذ إعلامية متنوعة سخَّرتها لهم السلطات العراقية، وذلك بعدما أوقعوا بالعلماء المسلمين خاصة صنوفًا من ألوان العذاب الجسدي، وأفنانًا من أشكال الأذى المعنوي، فعادة الحكام الظلمة في قمع العلماء المخلصين قديمة، وإبداعاتهم في تكميم الأفواه نوعية، ولقد خرج اللواء الركن محمود شيت خطاب من سجونهم المظلمة مُهَشَّمَةً عِظَامُهُ، وعَدَّ الأطباء في جسده قرابة (٤٣) كَسْرًا وتفتُّتًا.

وإزاء هذه الأهوال الجسام التي أمطرت المجتمع العراقي بوابل من الأخطار دعا العالِم

(١) ولد ببغداد سنة ١٣٣٢هـ، وشارك في القضاء على الحكم الملكي في العراق، فقَتَلَ آخر ملوك الهاشميين ببغداد فيصل ابن غازي في ١٤ تموز سنة ١٩٥٨م، مات رميًا بالرصاص في ٨ شباط سنة ١٩٦٣م.

العامل المجاهد الزَّهَاوي العلماء إلى مقر رابطة علماء العراق بغية مناقشة الظروف المستجدة، ووضع آليات وقائية للتعامل مع نتائجها، فخلص المجتمعون إلى قرار يقضي بالتوجه للقاء رئيس الدولة عبد الكريم قاسم، وخرج إليه جمهرة من العلماء منهم الشيخ فؤاد الآلوسي والشيخ إبراهيم المدرِّس والشيخ ياسين المنصور، وذلك برئاسة الشيخ الزَّهَاوي بوصفه رئيس جمعية رابطة علماء العراق، فاستقبلهم في وزارة الدفاع العقيد وصفي طاهر، وأخذ يجاملهم بقوله: إنه يحمل القرآن في جيبه دائمًا، ليبهته الشيخ الزَّهَاوي بردٍ حاسمٍ في لهجة مؤثِّرة أخرسته حيث خاطبه بكبرياء: إن القران الكريم لا يُحْمَلُ في الجيب بل في القلب، وما فيه يجب أن يُطَبَّقَ قولًا وعملًا.

وبعد برهة من الزمن دخل الزعيم عبد الكريم قاسم، ليفاجئه الشيخان الزَّهَاوي والآلوسي بعدم النهوض لاستقباله ترحابًا، فبادر الزعيم بالتقدُّم إليهما ومصافحتهما، ثُمَّ استقر جالسًا إلى جانب الشيخ الزَّهَاوي.

وبعد الترحيب بهم قال بلطف وتودُّدٍ: أنتم علماؤنا، ونحن في أمسِّ الحاجة إلى مساعدتكم وتأييدكم، فقال الشيخ الزَّهَاوي من غير أن يقدِّم أي مجاملاتٍ مُمْتَهَنَةٍ: المملكة خربت، لقد انتشر الكفر والإلحاد في البلد، فكيف نؤيدكم! وكانت أطراف الشيخ ترتجف غضبًا، وفي صوته نبرةُ تَحَدٍّ وحَنَقٍ.

ـ الزعيم: لا يوجد ما تَدَّعون.

عند ذلك أشار الشيخ الزَّهَاوي إلى الشيخ المُدَرِّس مخاطبًا إياه: قدِّم له كتب المسقوف، فقدَّم الشيخ المُدَرِّس للزعيم كتاب «أين الله» وكتابًا آخر فيه الكثير من الطعن والهجوم على الإسلام.

ـ الزعيم مبررًا: البلد في حرية.... ردُّوا عليهم!!

ـ الشيخ الزَّهَاوي: كيف نردُّ عليهم والصحف والمجلات الإسلامية معطَّلة، والعلماء يهانون في المساجد!

ـ الزعيم: الصحف غير معطَّلة!!

ـ الشيخ المُدَرِّس: جريدة الفجر الجديد معطَّلة، وصاحبها كان معنا في رابطة العلماء، وطلب منا إبلاغك بذلك.

وهنا نادى الزعيم رئيس أركان الجيش أحمد صالح العبدي، وسأله: هل حَقًّا جريدة الفجر الجديد معطَّلة؟ فقال: نعم، فطلب الزعيم منه رفع هذا المنع، ثُمَّ قال: أَحضر لي محضر مقابلة السفير الأمريكي.

وجيء بالمحضر، وتناوله الزعيم قاسم، وما كاد يقرأ نصف صفحة منه حتى ثارت ثائرة الشيخ الزَّهَاوي، فخاطب الزعيم بلهجة حادَّةٍ صارخًا في وجهه:

ما لنا وللسفير الأمريكي! لقد جئنا لنخبرك بما حَلَّ بالبلد من دمار.

أَذْعَنَ الزعيم للشيخ وأخذ يستمع إلى ما يشرحه له من أحداث مُعْضِلَةٍ أَلَمَّتْ بالعراق، ويقترح على الزعيم حلولًا لها.

ـ الشيخ الزَّهَاوي في ختام اللقاء الحاسم: إن هذا البلد مسلم، ولا تستطيع أي قوة في الدنيا أن تجعله شُيُوعيًّا، وسوف نقف جميعًا نحن العلماء ضد الشُّيُوعيَّة والاستعمار حتى آخر لحظة من حياتنا حتى يرجع البلد إلى الإسلام مرة أخرى.(١)

إن الكثيرين ممن حولنا ممن بلغ بهم الدهر سنًّا متقدمًا أو بلغت بهم الأقدار منزلة رفيعةً هم بحاجة إلى تذكير مستمر لا يفتر بالحق إن حادوا عن جادته، وذلك يتحقق عبر منهج تقويم المسار التربوي، وهم في الوقت نفسه في عوز ملح إلى تعزيز وتوطين مواقفهم الصائبة عند تحريهم الحصيف بغية اقتفاء أثر النبوة، وذلك يتأتى من خلال منهج تمكين المسار التربوي.

لقد زلت قدم أحد حكام العرب أيما زللٍ، فنهض له الشيخ الزَّهَاوي محذرًا، فكان للرجل عند الله أجر النهي عن المنكر، وعند الناس خلود اسمه في قلوب المسلمين، فما برحت الأقلام والألسن تتشرف بالدعاء له والثناء عليه إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

ثانيًا: الحَسَنِيُّ وغلال العفو الحَسَن

وثَّق العارفون من أهل دمشق أنه كان في مدينتهم العامرة عالم شهير متفنِّنٌ من أقران المحدث الأكبر الشيخ بدر الدين الحَسَنيِّ(٢)، وهو الشيخ عبد الرزاق بن حسن البَيْطار المَيْدِانِيُّ الدمشقيُّ، وقد وقع في نفس البَيْطار على الحَسَنِيِّ في ذات يومٍ غابرٍ غبطةٌ لِمَا آتاه الله من الفتح المبين في العلم والعمل، فَزَلَّت قدمه يومًا حيث نظم قصيدة يهجو بها الإمام الحَسَنيَّ، وأرسلها مع أحد تلاميذه إلى دار الحديث التي يعتكف فيها الشيخ للعبادة والتعليم، فطفق حامل الرسالة الناقدة يُلقيها في رحاب المسجد الملاصق لمقر إقامة الشيخ طمعًا في تعكير رائق صفوه وتغوير زلال نبعه.

وكان في المسجد مُريدٌ محبٌّ للشيخ الحَسَنيِّ شِبْهُ عامِّيٍّ يقال له الشيخ طه الزَّبَدانيُّ، وهو رجل أَيِّدٌ مفتول العضلات، هاجم الخطيب الملقي للقصيدة بفظاظة فأوسعه ضربًا، وأحدث في مسجد الحيِّ جَلَبَةً، وذلك من دون أن يكلِّفه أحدٌ بالتصرف الخاطئ الذي أقدم عليه بقرارٍ عاطفيٍّ فرديٍّ مَحْضٍ، فلمَّا أن سمع الشيخ الحَسَنيُّ الضَّجة وعرف المشكلة أطلَّ من حجرته إلى صحن المسجد صارخًا: لا لا.. هذا مسجد.. لا يجوز هذا الذي تصنعون.. لا يجوز. ثُمَّ أرسل وراء القوم، فلمَّا عَلِمَ جَلِّية الأمر عنَّف المحبَّ المنتصر له على سوء تقديره وقلَّة تدبيره، ثُمَّ خاطب كاتم سِرِّه في حضرة جميع تلاميذه: يا شيخ يحيى.

ـ الشيخ يحيى: لبيك.

ـ الشيخ: اذهب إلى (أبو حَرْبٍ) فاشترِ

(١) مازن مَكِّي العاني: أمجد الزَّهَاوي، العلامة المجاهد وشيخ العراق، (١٠٦ ـ ١٠٨).

(٢) هو أحد أعيان الأُمَّة الأفاضل من الشاميين، عالمٌ محدِّثٌ، عارفٌ عابدٌ، وجيهٌ مُقَدَّمٌ، الشريف الشيخ محمد بن يوسف الحَسَنيُّ الملقب ببدر الدين، ولد بدمشق سنة ١٢٦٧هـ، وحفظ الصحيحين غيبًا بأسانيدهما، ونحو ٢٠ ألف بيت من متون الشعر للعلوم المختلفة، وكان منقطعاً للعبادة والتدريس، مُنْكِرًا لرغائب النفس والدنيا، فرفع الله شأنه عند الحكَّام وأهل الشام.

صندوقين من الحلو، أحدهما كبيرٌ والآخر صغيرٌ، وهيِّئ لنا سيارة.

ثُمَّ اصطحب الشيخ الحَسَنيُّ المبعوثَ بالقصيدة حتى وصلوا إلى دار العالِم الذي نظم القصيدة في هجاء الشيخ المُحَدِّث، ولَمَّا فتح الشيخ البَيْطار الباب وجد الشيخ البدر فذهل، وطفق يرحب بقدومه على استحياء منه، فدخل الجمع إلى باحة المنزل وجلس الحَسَنيُّ على البحرة، والتفت إلى صاحب الدار قائلًا: أنتم أحسنتم إلينا إحسانًا كبيرًا بأن أخذتم من كثير سَيِّئاتنا، وأعطيتمونا من حسناتكم بتلك القصيدة التي أرسلتموها، جزاكم الله عنَّا كل خير كِفاءَ ما قدَّمتموه من إحسان! هذا صندوق كبير لكم، وهذا صغير لتلميذكم الذي أتحفنا بالقصيدة في دار الحديث، جزاه الله خيرًا كذلك.

احمَرَّ وجه العالم وتلميذه، وأطرق كُلٌّ منهما، وقام الشيخ الحَسَنيُّ منصرفًا لا يلوي.

وقد كان من غلال عفو الحَسَنيِّ أن نظم البَيْطار قصيدة من وزن الأولى مع قافيتها ورويِّها في مدح مولانا المحدِّث الأكبر، وجاء فألقاها بنفسه في دار الحديث في محفل الحَسَنيِّ المُشْتَمِلِ على غالب تلاميذه؛ لتأتلف القلوب الكبيرة نَزْلَةً أخرى، ولتنعقد بين الشيخين الجليلين عرى علاقة متينة تجاوزت العثرات وتعالت عن تتبع العورات، نسأل الله لهما أن يكتبا في المتحابين في الله الذين يظلُّهم سبحانه في ظلِّه يوم تصير كل نفس بما كسبت رهينة.(١)

إن ثقافة التغافر قد وظفت على نحو إبداعيٍّ نادرٍ للغاية، فمنهج التربية وفق خارطة تقويم المسار قد آتى أُكُلَهُ على خير وبركة من خلال مبادرة طيبة أخلص فيها الشيخ الحَسَنيُّ النية لوجه الله تعالى، فقلبت الحلوى المهداة بسخاء شعر الهجاء القبيح إلى شعر تطيب بسماعه الآذان، وتنجلي بعذب لحنه أدران القلوب.

ثالثًا: حسن العَدْوِيُّ وارث النبوة بحقها

إن من أعيان الرجال الصَّدَّاحين بالحقيقة في أزمنة تسويق ثقافة الكذب والرياء والإملاءات الهدامة العارف بالله الشيخ الأزهري حسن العدْوِيُّ، إنه عالِمٌ ربانيٌّ من خاصَّة الخاصَّة في علمه بالشريعة وتقواه لله تعالى، وهو فقيه مالكي محدِّث، أحد أشهر خطباء الثورة العُرابيَّة، كان عضوًا في مجلس القيادة الأعلى الذي شكله المجاهد الثائر الحر أحمد عرابي.

ولد في قرية عدْوة بمصر سنة ١٢٢١هـ، وتعلم في الأزهر فغدا واحدًا من أكابر مشايخه، ومات بالقاهرة سنة ١٣٠٣هـ، ومن مواقفه المشهودة أنه لَمَّا زار السلطان العثمانيُّ عبد العزيز بن محمود الثاني مصر في عهد إسماعيل باشا، راح اسماعيل يَجْهَدُ في بذل كل مظاهر الاحتفاء بالزيارة؛ إذ إنها كانت جزءًا من برنامجه التَّزَلُّفِيِّ للحصول على لقب

(١) محمد عبد اللطيف فرفور: صفحات مشرقة من تاريخنا المجيد، (٣٩ ـ ٤٢).

خديوي، وقد كان من مراسم الزيارة أن يستقبلَ العُلَمَاءُ الخليفة في السَّراي، وعندما حان الموعد (دخل السادة العُلَمَاءُ الأجلَّاء فنسوا دينهم واشتروا به الدنيا! وانحنوا أمام مخلوق مثلهم تلك الانحناءات، وخرجوا موجِّهين وجوههم نحو الخليفة كما أمرهم رجال التشريفات، إلا عالمًا واحدًا هو الشيخ حسن العَدْوِيُّ، ذكر دينه ونسي دنياه، واستحضر في قلبه أَنْ لا عزة إلا لله، ودخل مرفوع الرأس كما ينبغي أن يدخل الرجال الأحرار)[١]، ثُمَّ ابتدر الخليفة بالنصيحة التي يرتقبها القوم من العالِم العامل، مذكرًا إيَّاه بعذاب الله إن هو لم يَعْدِل فيمن وَلَّاه سبحانه عليهم، وما إن فرغ من الإدلاء بما في جعبته من كلام الحق الذي أريد به الحق حَتَّى سَلَّمَ على الحضور ومضى نحو مكانه في المجلس بهيبة العُلَمَاء تاركًا الأدعياء من المشايخ أذلاء صاغرين، فاجعًا الخديوي حيث أسقط في يده.

توجس الجميع من آثار أَنَفَةِ الشيخ العَدْوِيِّ، فالخديوي قلق على طموحاته الرئاسية، والسَّراي على منافعهم الكثيرة المكتسبة، والمشايخ على ماء وجههم المهدَر بسبب خروج الشيخ التواقة نفسه لنيل شرف الشهادة في سبيل الله عن معزوفة القطيع المعتمدة لدى الحاكم المطلق، ولا تغفو أعين الظالمين إلا على أنغامها الخافتة، ولا تُذْبَحُ قلوب المظلومين إلا على وقع أصدائها الخانقة.

بيدَ أن أمرًا عَجَبًا قد وقع، فرَفَعَ الغُمَّةَ عن الخديوي وزبانية السَّراي بعدما اطمأنوا على بقاء نفوذهم وحصانة ممتلكاتهم، وألحق الخزي بالمشايخ المطأطئين رؤوسهم رغبة بما عند السلطان أو فرارًا من صفع سوطه الرَّنان؛ فقد أخبرهم الخليفة بكلامٍ فَصْلٍ قائلًا: ليس عندكم إلا هذا العالِم، ثُمَّ خلع عليه فألبسه ثوبًا وأكرمه دون من سواه، وذلك في إغداقٍ سخيٍّ لم يكن الشيخ الكريم يرتقبه[٢].

ثُمَّ قدر الله أَنْ كان الشيخ حسن العَدْوِيُّ من الذين قُدِّموا للمحاكمة بعد أن حلَّت الهزيمة بالثورة العُرابيَّة، ووقف الشيخ ـ وهو على أعتاب الثمانين من عمره المبارك ـ بإباءٍ ضَنَّتِ الأيام بمثله في عصرنا هذا أمام رجالات الخديوي من الباشاوات المأجورين، فسأله رئيس المحكمة إسماعيل باشا أيُّوب بأسلوبٍ فيه حنقٌ وحِقْدٌ: هل وقَّعْتَ باسمك أو ختمت بخاتمك قرارًا يقضي أن أفندينا المعظَّم سمو الخديوي توفيق باشا يستحق العزل؟

وفي لحظات خالدة من تاريخ الرجال المؤمنين الموقنين بحتمية وقوع القضاء والقدر رَمَقَهُ الشيخ الكبير بِقَدْرِهِ وعُمُرِهِ وإِيمَانِهِ بنظراتٍ ثابتة لا يُرَدُّ طرفها ولا تنكسر حِدَّتها، ثُمَّ وضع يديه على منضدةٍ أمام إسماعيل وقال باطمئنان غريب: أيها الباشا! إنني لم أَرَ الورقة التي تتحدث عنها؛ لهذا لن أجيب عن سؤالك عما إذا كنت وقعتها، لكنني أقول لك ما يأتي:

(١) عبده كوشك: صفحات مشرقة من تاريخ أعلام الأُمَّة، (٦١٥).

(٢) سيد حسين العفَّاني: صلاح الأُمَّة في علو الهمة، (٢٨١/٣ ـ ٢٨٢).

إنك إذا أحضرت لي الآن ورقة تحتوي على مثل هذا المعنى الذي ذكرته، فإنني لن أتأخر عن توقيعها، وأختمها بخاتمي في حضورك الآن أيها الباشا! ثم نظر الشيخ إلى أعضاء المحكمة قائلًا: إذا كنتم مسلمين فهل تستطيعون أن تنكروا أن توفيق باشا –وقد خان بلده وذهب إلى الإنجليز وانضم إليهم ـ لم يعد جديرًا بأن يكون حاكمًا لنا؟

لقد أذهلت جرأته أعضاء المحكمة الذين خابت كل سبلهم لإرعاب الرجل، وحملق بعضهم بوجه قرينه بِحُمْقٍ، ثُمَّ كَسَرَ رئيس محكمة الظُّلمات حاجز الصمت المُلِمِّ بهم، فدعا الحراس بغضب شديد إلى نقل الشيخ ـ المُدَان بقرينة الاعتراف الضِمْنِيِّ بمعاداته للخديوي توفيق واتهامه له بالخيانة العظمى ـ إلى قريته النائية، وذلك بعدما أَمَرَ بزجِّه في سِجنٍ هَرِمٍ كان فيها[1].

لقد تنقلنا في الحادثة الرائعة السابقة في ظلال تقويم راسخ على المبدأ للمسار، فقد أبلغ وارث النبوة بحقها الشيخ الأزهري حسن العَدْوِيُّ الضيف الزائر الكبير بأحوال الرعية بصدق بعدما استقبل جنابَه بأنفة، فحقق في ذلك هدفًا ساميًا عبر تقويم شذوذ المستأمنين على مصالح أهل مصر بدءًا بالخديوي ثم رجالات السَّراي، وقد انبثق عن موقفه الناصح لأئمة المسلمين تعزيز السلطان العثمانيِّ عبد العزيز لشهادة الحق التي أدلى بها الشيخ العَدْوِيُّ بقوله: (ليس عندكم إلا هذا العالِم)، ثم إن الأقدار أوقفت الشيخ العَدْوِيَّ ابن الثمانين حولًا في موقفٍ طلب فيه الصدح بكلمة الحق نزلة أخرى، فما كان من هذا العالم العامل إلا أن حمل اللواء بحقه وقوم مسار أعضاء المحكمة غيرَ آبهٍ بعقاب حتميٍّ سوف تطاله ألسنة نيرانه لا محالة.

وإنني لأسأل المولى سبحانه أن يقيض لهذا المنهج الرشيد من يوصِّفه فكرًا نافعًا جامعًا، ومن ينشره تمثُّلًا عمليًّا مبهرًا، فاللّٰهُمَّ إخلاصًا ننشد عبره نور هديك العظيم.

(١) سيد حسين العفَّاني: أساليب الدَّعوَةِ والتَربِيَة في السُنَّة النَبَوِيَّة، (٢/ ٣٢٨ ـ ٣٣٣).

وثيقة الهوية السوريّة والعلاقة مع الآخر في ضوء الثقافة الإسلاميّة

د. محمد أيمن الجمال ـ أستاذ الدراسات العليا في جامعة السلطان محمد الفاتح في إسطنبول

ضمن سلسلة من الوثائق المرجعيّة وفي الذكرى العاشرة لصمود أهلنا في وجه الطغيان والظلم أصدر الم جلس الإسلاميّ السوريّ وثيقة سمّاها: (وثيقة الهوية السورية) وقد كان لهذه الوثيقة صدى كبير في الأوساط العلمية والاجتماعية والثورية والسياسية في سوريا، ويمكن أن نعدّها بحقّ منطلقا نحو تثبيت هوية الشعب السوريّ، وحجر الأساس في فهم طبيعة المجتمع السوريّ.

إنّ هويّة المجتمع السوريّ التي عبّر عنها المجلس الإسلاميّ لا تتجاوز توصيفًا لواقع الحال، ولم تكن مطالبةً بحقوقٍ، ولا إقصاءً عن مناصب، ولا تغييرًا لواقع حال، ولا محاولاتٍ لتغيير ديمغرافيّ أو أيديولوجيّ للمجتمع السوريّ، ولم تُشِر إلى وصايةٍ على مرجعيّة الشعب السوريّ الثقافية أو الفكريّة أو الدينيّة، ولا كانت فرضًا لدستور، ولا اقتراحًا لمبادئ فوق دستوريّة، ولم تتضمّن ذكر المحاصصات بين أبناء الشعب وفئاته المختلفة، فكانت بذلك نموذجا للقبول بالشريك في الوطن، ومثالًا للتعامل المثاليّ مع الآخر في نطاق الوطن.

إنّ العالم الغربيّ يسعى بشكل دائم إلى فرض محاصصة بين أبناء الوطن يُسمّيها (عادلةً) وهي ظالمة لكونها محاصصةً، حيث إنّ العلاقة الأصيلة يجب أن تبنى على القدرات والإمكانات والتخصصات لا على الانتماءات، فيفرض نسبة للمرأة، وحضورًا للأقليّات، ممّا يؤثّر في كثير من الأحيان على حقوق الأكثريّة، فيحتكر بدعوى العدالة الاجتماعيّة حقّ تقسيم المجتمع، وفرض نسبةٍ منه لتمثيلٍ ما! وهو في ذلك يؤسّس لطائفيّة نأت المرجعيّة الشرعيّة عنها، وأسّست في وثيقة الهويّة لإنكارها.

لقد راعت هذه الوثيقة مكوّنات المجتمع السوريّ الأصيلة في الوطن كلّها، فنصّت على حقوقها، وبيّنت أنّ من أغراض هذه الوثيقة صيانة حقوق الأقليّات التي لم ترتض الهويّة أن تصفها بأنّها (أقليّات)، بل سمّتها الوثيقة (مكوّنات)، في نظرةِ احترام وتقدير وقبول للآخر، على نحوٍ لا نجد مثله في أدبيّات تلك المكوّنات جميعها عند حديثها عن الأكثريّة.

إنّ وثيقة الهويّة السوريّة تؤكّد على هويّة الشعب السوريّ (العربيّة الإسلاميّة المعتدلة المتوارثة في بلادنا) بشكلٍ واضحٍ وإن لم تنصّ الهويّة عليها بشكلٍ مباشرٍ، والغرض من عدم النصّ: التأكيد على أنّ الهوية ليست طائفيّةً أصلًا،

لكنّ هذا هو واقع الشعب السوريّ، وحين نذكر بوضوح في مثل هذا المقال هذه الهويّة فذلك لئلاّ يُظنّ أنّ الهويّة هي الهويّة الإسلاميّة الهلاميّة، أو أنّ الهويّة الإسلاميّة تعني الانتماء إلى الإسلام بمعناه الأعمّ الذي تدّعيه المكوّنات الأخرى كالدرزية والنصيريّة، بل الهويّة بما ذكرَتْهُ من بنودٍ أرادت تحديدَ الإسلام المتوارث في شعبنا منذ عهد الفاتحين من صحابة رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم إلى يومنا هذا؛ باعتباره حقيقة واقعة لا من باب الطائفيّة. وهذا من توصيف الواقع الذي جاءت به هذه الوثيقة.

وحتّى نتمكّن في هذا المقال المختصرِ من الحديث عن مفهوم قبول الآخر في (وثيقة الهويّة السوريّة) فيجب أن نحدّد مفهوم الآخر، وينطلق ذلك من معرفة من نحن؟ ولا بدّ كذلك أن نتحدّث عن مفهوم القبول ومعناه، بعد التعرّف إلى مفهوم الهويّة.

> غياب الهوية في المجتمع يفقده معنى وجوده واستقراره وتغيب مشتركاته، فيتفرّق صفّه

ما الهوية؟

يختلف علماء الاجتماع والسياسة في تعريف الهوية المجتمعيّة، ويمكن القول إنّ بناءَ الهويّة على التعريف اللغويّ أصحُّ ما يمكن أن تُعرَّف به، فهي تعبير عن ماهيّة الشيء، أو هي: ما به الشيء، ولذا فإنّه يُمكِنُ القولُ إنّ **الهويّة الوطنيّة: هي مجموعةُ الخصائص والسمات التي تصنع الانتماء المشترك بين مجموعةٍ من الناس.** وللهويّة دورٌ في رفع شأن الأمم وتقدّمها وازدهارها، وإذا غابت الهوية فإنّ المجتمع يفقد معنى وجوده واستقراره وتغيب مشتركاته، فيتفرّق صفّه.

فهي تعبيرٌ عن انصهارِ العوامل التي لا تشكّل الهويّة، واضمحلال الفوارق بين المنتمين لهذه الهويّة على حساب تحقّق الهويّة في كياناتهم الشخصيّة، فهم يُغلّبون هويّتهم على رغباتهم وحاجاتهم الفرديّة أو الجماعيّة.

وللهويّة جوانب متعلّقة بالدين واللغة، وعناصر متعلّقة بالتاريخ والثقافة، وعناصر متعلّقة بالعادات الاجتماعيّة والنفسيّة، وتؤثر في الزيّ والطعام، ولكنّ أهمّ ما يكوّنها الدين واللغة إن كان الدين يشمل كلّ نواحي الحياة، ففي هذه الحالة تكون الهويّة مستقاةً من الدين بشكلٍ أساسٍ، ومنبثقةً عنه أولًا، وهو أهمّ مرجعيّاتها. فلا غرابة أن تكونَ الهويّة في (وثيقة الهويّة السوريّة) التي أصدرها المجلس أنّنا مسلمون، بل الغريب أن يُنظَر إلى الهويّةِ المعاصرةِ لسوريا بانعزالٍ عن الإسلام، فإنّ هذا نوعٌ من الانفصال عن الماضي والواقع وعيشٌ في الأحلام.

إنّ شعوبنا التي خرجت من المساجد بشعارات عفويّة في أوّل الثورة تهتف للحريّة لهي أحقُّ بإعلاء قيمةِ الهويّة، وأولى أن تكون الهويّةُ متمثّلةً في منطلقاتها في الحياة ومنطلقاتها في الثورة، لم يخرج الثائرون ليعبّروا عن هويّة

شيوعيّةٍ ولا عروبيّةٍ قوميّةٍ، ولا كرديّةٍ ولا شركسيّةٍ، ولا ليعلنوا انتماءهم إلى الديمقراطيّة الغربيّة أو الليبراليّة الأوربيّة، بل خرجوا تعبيرًا عن هويّة دينيّةٍ ترفضُ الظلم انطلاقًا من تعاليم دينها، وإنسانيّة تنادي بالحقوق اعتمادًا على صفاء إنسانيّتها، ولذا فإنّ كون الهويّة (إسلاميّةً) أدقّ ما يعبّر عن هويّة المجتمع التي لم تستطع أيدي العابثين أن تعبث بها مع جهودهم المضنية عبر أكثر من أربعة عقود، فلم يستطيعوا تغيير الهوية لتصبح هويّةً قوميّةً أو اشتراكيّةً أو بعثيّةً أو شيوعيّةً! بل حافظ الناس على هويّتهم مع شدّة البطش وعنفِ محاولات تشويهِ الهويةِ ابتداءً بالمناهج ومرورًا بالمسلسلات والأفلام وانتهاءً بالقوانين التي فُرِضت في محاولاتٍ مستميتةٍ لقطعِ الناس عن إرثهم الحضاريّ الدينيّ.

ومن المعلوم أنّ العواملَ المؤثّرةَ في بناء الهويّة كثيرةٌ، منها: المجتمع المحيط، والانتماء الديني والفكريّ والجغرافيّ، والتحدّيات المشتركة بين مجموعة من الناس، وهذه العوامل لها تأثيراتٌ كبيرةٌ في بناء الهويّة الذي قد يمتدّ لقرون متطاولة. ولهذا فإنّ مصطلح (صناعة الهويّة) أو (صياغة الهويّة) مصطلح غير مفهوم ولا يمكن أن يُتعقّل، فالهوية لا تُفرَضُ ولا تُبنَى ولا تُصاغُ ولا تُنشأ، بل تتكوّنُ من مجموعةِ العوامل عبر عصورٍ متطاولةٍ، ولا بدّ أن يتواطأ عليها جمهورٌ كبيرٌ هم الذين يمثّلون محلّ هذه الهويّة (المجتمع).

من نحن؟

وقد يتبادر سؤالٌ حول طبيعة المجلس الإسلاميّ، ومن الذين يمثّلهم المجلس ويتحدّث باسمهم، ويعدّ مرجعيّة لهم؟ وجوابه أننا أكثريّة سكّان سوريا التي عبّرت الوثيقة عن هويّتها، فنحنُ المسلمون السنّة الذين يقطنون هذه البلاد منذ مئات السنين، ولغةُ عامّتنا هي اللغة العربيّة، فلذلك أمكننا أن نقول إنّنا مسلمون عرب، وكون الأكثريّة التي نتحدّث عنها هي من العربِ لا يعني أنّ غيرهم ليس منتميًا لهذه الأكثريّة، بل ينتمي إليها التركستانيّ والشركسي والألبانيّ كما ينتمي إليها الكرديّ والأذريّ، لا فرق بينهم في الانتماء إلى هذه الهوية عينها، ومجموع هؤلاء هو ما نفخر به مكوّنًا أغلبيًّا للشعب السوريّ، وما يلتقي عليه هؤلاء أكثر بكثير مما يفرّقهم.

إنّ وثيقة الهويّة السوريّة بنصّها على العربيّة لغةً تُشكّل ثقافةَ الشعبِ السوريّ لا تقصي المكوّنات الموجودة في المجتمع السوريّ عن هذه الهويّة، فالشركسي والتركمانيّ والكرديّ يتكلّمون العربيّة باعتبارها لغة عامة الشعب السوريّ، واللغة العربية هي لغة التواصل بين أبناء المكوّن الواحد وإن كان من غير العرب أصلًا، وهي لغة التواصل بين أبناء هذه المكوّنات وبينهم وبين الأكثريّة التي يشكّلها من يتكلّمون العربية أصلا، ولا يشكّل لهم حديثهم بالعربية تعدّيًا على ثقافتهم المستقاة من الدين، بل كلّ واحدٍ منهم يقرأ في صلاته القرآن الكريم باللغة العربية، ويستمع إلى خطبة الجمعة والعيدين بالعربية، ويفهم أحاديث النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم بالعربية.

والقولُ إنّ العربيةَ هي لغة الهويّةِ لا ينتقصُ من لغاتِ المكوّناتِ الأخرى الموجودةِ في المجتمع

السوريّ، فالكرديّةُ لغةٌ تشكّلُ ثقافةَ الأكراد حيثما كانوا في سوريا، لكنّها ليست لغةً تشكّل ثقافة العربيّ أو التركمانيّ مثلا في المجتمع السوريّ، وكذا التركيّة والشركسية هي لغة تشكّل ثقافة داخليّة لكنّها ليست ثقافة مجتمعيّة ترقى لتكون هويّة مجتمع. ويمكن القول إنّ اللغات الأخرى كاللهجات المحليّة في المناطق وإن لم تذكر في الهويّة إلا أنّ هذا لا يعني إلغاءها أو محاربتها، لكنّ هذا يعني عدم عدّها لغةَ تخاطبٍ في المجتمع بشكلٍ عامٍّ، ولا يعني عدمَ القبولِ بها لغةً علميّةً في التعليم المنهجيّ في عموم البلاد، وقد يقبل أن تكون لغةَ تعليمٍ خاصّةٍ في المناطق التي يكثُرُ بين أهلها انتشارُ هذه اللغة.

من الآخر؟

أمّا الآخر فهو المنتمي إلى غيرِ هذه الهوية، من أبناء هذه الأرض الذين يشاركون الأكثرية في العيش المشترك عليها منذ مئات السنين، والذين حفظت لهم الأكثريّة حقوقَهم الكاملةَ عبر التاريخ، فبقيت لهم أحياؤهم ومناطقهم ومزارعهم وجبالهم، وتوارثوا أسماءهم وانتماءاتهم، ودامت لهم معابدهم ورموزهم الدينية أشخاصًا وأماكنَ وكتبًا.

بعضُ الآخرُ هو المعتدي علينا من الذين حمل السلاح وقاتلنا، أمّا الوافدون إلينا من الطوائف والملل الأخرى، ومن الذين قدموا إلى هذه البلاد في ظلّ حكم الطغاة والمجرمين، ومن الذين استقدمهم الطغاة وأعطاهم جنسيّة هذه البلاد ووطّنهم في بيوت من هجّرهم من أهلها فهؤلاء ليسوا من أبناء هذا الوطن وإن حملوا جوازات سفره.

بعضُ الآخرِ وقف مع الثورة وبعضُهم وقفَ موقفَ المتفرّج على الطاغية الظالم الباغي، وبعضهم أرسل أولاده إلى جيش المجرمين، الجيش الذي سعى لطمس هذه الهوية وتمويهها وإذابتها بالاعتداء عليها والاجتهاد في تغيير هوية الشعب وانتمائه، بعض هؤلاء هم أعداء للثورة والقيم والمبادئ والإنسانيّة، وليس فقط للهويّة والانتماء، بعض هؤلاء لا يمكن أن يُقبَلوا في مجتمع ليكونوا فيه جزءًا من هويته ونسيجه الوطنيّ، وبعضهم جزءٌ من هذا النسيج.

وخلاصة القول إنّ الآخر في نطاق الوطن يعني واحدًا من ثلاثة كلّهم لا ينتمي انتماء مباشرًا إلى الهوية السوريّة:

- الواقف في وجه الظالمين المناوئ للبطش والديكتاتوريّة والاستئثار بالسلطة والحكم والموارد من حَمَلَةِ المبادئِ غير المنتميةِ إلى هويّةِ هذه البلاد؛ إمّا لكونهم من أتباع ديانات أخرى كالنصيريّة والدرزيّة والنصرانيّة والصابئة، أو لكونهم من أتباع أيديولوجيات مستوردةٍ من الشرق أو الغرب؛ الذين يرونَ تمسّك عموم الشعب بعاداته وتقاليده جزءًا من التخلّف والعودة إلى العصور الحجريّةِ، وانتماءً إلى الجزيرة العربيّة!. وهذا الصنف الذي يجتهد في تغيير هويّة الأكثرية فكريًّا، الساعي إلى سيادة فكره العلمانيّ أو الشيوعيّ أو الليبراليّ في المجتمع، الذي يبذل طاقته لإقصاء الإسلام عن الحياة، وإبعادِ المجتمع

عن امتدادِه الحضاريّ، لا يمكن أن يكون منتميًا إلى الهويّة انتماءً مباشرًا، وإن كان منتميًا إلى وصفَي: (العربيّة الإسلاميّة) أو أحدهما بمعناه العام الذي يشكّل العمود الفقريّ في هذه الهوية، وإن كان هؤلاءِ منتمين إلى الثورة أيضًا.

- الذي لم يعترض على الظالم اعتراضًا مباشرًا، ولم يمنعه من ظلمه، ويُظهِرُ نفسَه معتدلًا غير مشاركٍ في الإثم والعدوان على الأكثريّة، وهم كثيرٌ من أبناء المناطق التي بقيت تحت سيطرةِ النظام من السنّة وغيرهم من المنتمين إلى الهويّة من حيث الأصل، المبتعدين عنها من حيث الممارسة والسلوك.

- الموافق للظالمين، الذي شارك في قتل الأكثريّةِ ومحاولة تغيير هويّتها ديمغرافيًّا وعسكريًّا وثقافيًّا.

ومن نافلة القول أنّ الذي أُعطِيَ جنسيّة هذا البلد لأنّه حمل سلاحَه في وجه الثائرين ـ من الفرس الرافضة أو الأفغان الذين جنّسهم النظام في هذه الفترة لقتالهم إلى صفّه ـ لا يمكن أن يكونوا أبناءَ وطنٍ أصلًا، وليسوا منتمين إلى هذا الوطن، وإلى هذا ألمَحَتِ الوثيقة حين عبّرت بقولها: (المكونات التاريخية العديدة) فقيدُ التاريخيّة يُفيدُ أنّ كلّ مكوّنٍ انتمى إلى الوطن في ظلّ هذه الظروف لا يمكن أن يكون إلا في الصفّ الخامس من صفوف الانتماءِ، وهو أبعدُ ما يكون عن أن يُعدّ جزءًا من معادلة الانتماء أو مؤثّرًا في صياغة هوية المجتمع.

والواجب الشرعيّ يقضي بقبول الصنف الأول والثاني من الآخر في إطار الوطن، والتعامل معهم في نطاق الحقوق والواجبات كما نتعامل تمامًا مع من ينتمي إلى الهويّة نفسها انتماءً حقيقيًّا كاملًا، وهذه هي الطريقة التي يفرضها ديننا وتوجبها شريعتنا في التعامل معهم، فلهم ما لنا وعليهم ما علينا، من البرّ إلى محسنهم ومنع مسيئهم من الإساءة إلى الدين أو الهوية أو المجتمع، والأخذ على يد المعتدي، وليس من المقبول أن نتنازل عن ثوابتنا أو نطمس هويتنا تحت شعار رعاية الآخر والقبول به، ولا من المطلوب منا شرعًا أن نغيّر أحكام ديننا من أجل أن يقبل بنا الآخر! الذي لا يمثّل هوية المجتمع.

إنّ محاولات الآخرين المتكررة لطمس الهوية تحت شعارات صناعةِ هويّةٍ جديدةٍ سعيًا لفرضِ نمطِ حياةٍ جديدٍ مستوردٍ لا يناسب واقع مجتمعاتنا ولا عاداتنا ولا تقاليدَنا، ويعارِض بشكلٍ فجٍّ ديننا وثوابتَنا لا يُمكِن أن يكونَ مَرضِيًّا في أيّ مجتمعٍ يحتفظ بقدرٍ من الاعتزاز بماضيه، فكيف بالمجتمع المسلم الذي تنبع عزّتُه من امتدادِه الزمانيّ إلى عصر النبوّة والفتوحات.

وأمّا النوع الثالث فهو وإن كان بعض مكوّنات هذا المجتمع لكن عدوانه على الأنفس والهوية والقيم والأخلاق والحضارة التي يمثّلها هذا الشعب يجعل حقّه في محاكمةٍ عادلة هو الحقّ الأوّل الذي يمكن أن ينالَه، ثمّ إن ثبتَ إجرامُه فيحاسبُ محاسبةَ المجرمين.

إنّنا هنا نتكلّم عن أفرادٍ ولا يُمكِنُ أن نُحمّل طائفةً كاملةً أو مكوّنًا كاملًا وِزرَ ممارسة أشخاصٍ

منه، وإن كانوا أكثريّة في هذا المكوّن، لكن يمكن تحميل المؤسسات المشاركة في وِزرِ القتل وقمع المطالبين بحقوقهم وِزرَ هذه المشاركاتِ، فالمؤسساتُ الأمنيّةُ والعسكريّةُ التي كان لها دورٌ في قمع الشعب السوريّ ليست منتميةً إلى هذه الهويّة وإن انتمى أفرادها بمسمّياتهم إليها، فهي كياناتٌ ساهمت في قتلِ الناس، وكلّها منبوذةٌ مجتمعيًّا عدوّةٌ للهويّةِ السوريّةِ.

مفهوم قبول الآخر مجتمعيًّا:

قبول الآخر لا يعني أن يأخذ حقوق الأكثرية، ولا يعني أن نقتنع بفكره ونغيّر هويتنا تماشيًا مع رأيه ووجهات نظره، ولا يعني عدم بيان ما في فكره من مفاسد من وجهة نظر الأكثريّة الذين يشكّلون هذه الهويّة، ولا يعني عدم مخالفته، وإنّما القبول المجتمعيّ هو قبول أن يطرح فكره ويُسمح له بعرض رؤيته، وعدم منعه أو تكميم فمه، وعدم الإساءة إليه، وحين يطالب بعض الناس من (الآخر) أن تسير الأكثريّة على رأيهم واجتهادهم حتى يقولوا: إن الأكثريّة تقبل الرأي الآخر يتبادر إلى الذهن أنّ هذا احتلال من نوعٍ جديد وتغوّل وتنمّر على حقوق الأكثريّة وهويّتها تحت دعوى الحفاظ على حقوق الأقليّات، أو تحت دعوى صناعة الهوية الجديدة للمجتمع.

إنّ الدعوات إلى النسوية وإلى الجندر وإلى قانون الزواج المدني المخالف للشريعة الإسلامية هي دعوات لإنكار الهوية والبعد عن الذات، وفي مؤدّاها دعوات إلى الانحلال الأخلاقيّ الذي لا يمكن أن يتوافق مع الهوية السوريّة الوطنيّة. ولا يمكن فرضها تحت شعارات قبول الآخر والتعايش السلمي والسلم المجتمعي، وهذه الدعوات انتهاك صارخ لهوية المجتمع المحافظة المنطلقة من الموروث الحضاري والفكري والقيمي لهذا الشعب.

الاعتداءُ على الهويّة ومحاولةُ تغييرها عسكريًّا وديمغرافيًّا وسياسيًّا لا يمكن أن يكون مقبولًا في أيّ مجتمعٍ بل هو معدودٌ في جرائم الخيانة العظمى، وهو كالاعتداء على الدستور أو على المبادئ فوق الدستوريّة، فالهويّة صنعتها تضحياتٌ كبيرةٌ قُدِّمت لبناءِ هذه الشخصيّةِ الوطنيّةِ المميِّزةِ للمجتمع، وجهودُ آباءٍ وأجدادٍ مؤسّسين لهذه الهويّة، حيث صاغ كلّ جيلٍ منهم بعض بنود هذه الهويّة، حتّى تكاملت صورة الهويّة بعد مئات السنين من الصناعة، وليست الهويّة استيرادًا، ولا يمكن أن تكون طريقتها الفرض الخارجيّ ولا القوانين الصادرة عن الأنظمة.

وسيحافظ شعبنا على هويّته مهما كثرت التحدّيات، لكنّ تقليل الصراع حول الهويّة، بتوضيحها للناس مطلبٌ شرعيٌّ ووطنيّ.

العلاقة بالآخر

د. عبد الكريم بكار

عالم العلاقات هو عالم الغموض والتعقيد، وهو عالم الأوهام والشكوك والتساؤلات، وهذا يعود الى هشاشة الأسس التي تقوم عليها كل علاقة بين إنسان وإنسان آخر، فأنا أرى الآخرين على المستوى الفردي والجماعي وعلى المستوى الحضاري من أُفق وعيي بذاتي وحضارتي... والآخرون يفعلون الشيء نفسه، لكن المشكلة أن وعيي بذاتي وحضارتي ووعي الآخرين بذواتهم وحضاراتهم وانتماءاتهم غير مكتمل ولا ناضج بسبب غموض التعريفات وبسبب الجدل حول العديد من القضايا لدى الجميع، وهذا كله يعني أن العلاقات التي نقيمها مع بعضنا ومع أبناء الثقافات الأخرى هي علاقات مهددة بالتوتر والقطيعة والبغي، ومهددة بالبرود والفتور، وهذا يعود إلى معطيات واضحة، وأحيانا غير واضحة، كما أن هذا يعني أن العلاقة التي نحرص على استمرارها لأي اعتبار كثيرًا ما تحتاج إلى رعاية دائمة وإلى الإبقاء على مسوغات استمرارها وإلا فما أهون أن تزول وكأنها لم تكن!.

أود هنا أن أسلط الضوء على هذه القضية بغية تحسين الوعي بها، ورؤية الأمور على الوجه الصحيح.

١ـ للشيء وجودان: شخصي وعلائقي؛ والوجود الذاتي من غير الوجود العلائقي قد يكون وجودًا بدائيًا ساذجًا، وقد يكون من غير معنى أو قيمة، فالرقم (٨) معدوم القيمة لو لم يكن على علاقة تراتبية بالرقم (٩) والرقم (٧) وهما من غير معنى لو لم يكونا جزءًا من تسلسل رقمي طويل للغاية.

الإنسان من غير أسرة ومجتمع وأصدقاء وزملاء لن يكون إنسانًا لأنه سيكون من غير لغة ولا عاطفة ولا معرفة بالخير والشر والحق والباطل؛ وهذا يعني أن كثيرًا مما نقيمه من العلاقات ليس من باب الرفاهية والترف، وإنما هو شيء ضروري لنكون بشرًا أسوياء ولنستمر على هذه الأرض.

٢ـ علينا الاعتراف بأن من العسير جدًا إقامة علاقات خالصة وشفافة ومنزهة عن الأغراض على نحو كامل؛ فأنا شيء وأنت شيء آخر، وهذه الغيرية تظل موجودة وماثلة، والواحد منا مهما تصور أن علاقته بالشخص الفلاني أو الجهة الفلانية تساوي وجوده وحياته، وأن فقدها يعني الموت، فإن تصوره ذاك يبقى غير موضوعي، ويظل على نحو يجعله في حاجة إلى غيره من بني الإنسان، وفي

حاجة إلى محيطه وما فيه من هواء وماء وتراب؛ وهذا يعني أن العلاقة تنشأ بيننا وبين الآخرين بسبب الشعور بالحاجة إليهم، ولدى الآخرين الشعور نفسه، وهذا يجعل التكامل هو أساس العلاقة بيننا، وكلما كان الإشباع لحاجاتنا أكبر شعرنا بالتكامل وأهميته أكثر وشعرنا بالفائدة أيضا، وحين يشعر أحد الطرفين بالاستغناء عن الطرف الآخر أو يشعر أن ما يقدمه الآخر له على أي مستوى كان لا يؤدي إلى المزيد من التكامل فإن من المتوقع فتور العلاقة التي كانت يومًا مصيريه أو حيوية جدًا، وحينئذ فإن من المتوقع أن يشعر أحد الطرفين بأن العلاقة معه صارت وسيلة لاستغلاله، وهذا كله يعني شيئًا واحدًا هو أنه ليس هناك ـ على العموم ـ في هذه الحياة علاقه أبدية، أو لا يمكن انفصالها، وإن الجسد حين يثقل على الروح ويحمِّلها من الآلام ما لا تطيق فإنها تغادره بالموت على ما كان بينهما من علاقه فريدة وعميقة!.

٣ ـ وجود الآخرين ضروري لوجود الذات، ولو أننا فرضنا وجود تشابه مطلق بين بني آدم وتوافق مطلق في مصالحهم وطموحاتهم، فإن ما يترتب على العلاقة بيننا من مشكلات قد يكون منعدمًا أو ضئيلًا، لكن الله تعالى لم يشأ ذلك وإنما شاء لنا أن نكون متغايرين ومختلفين ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ﴾ [هود: ١١٨ ـ ١١٩] هذه الثنائية وما ترتب عليها من الشعور بالمغايرة هي معقد ابتلاء في حياتنا العامة، وإن على كل واحد منا أن ينجح في إقامة علاقته مع من يخالطهم، ويلتقي بهم على أساس من العدل والبر والإحسان؛ وفي هذا الإطار نعقل قوله سبحانه: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾[الشعراء:١٨٣]،وقوله:﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ﴾ [المائدة: ٨] لكن لدينا من الشواهد ما يؤكد أن كثيرًا من الناس ـ إن لم نقل أكثرهم ـ لم ينجحوا في إقامة علاقة خيرة وصحيحة، وهذا ما نطقت به الآية الكريمة ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ﴾ [ص: ٢٤]، وهذا يعني أن علينا جميعًا أن نبذل جهدًا فكريًّا وأخلاقيًّا أكبر حتى نستجيب لأمر ربنا في تحسين مستوى العلاقات بيننا بوصفنا إخوة وبوصفنا خصومًا ومتنافسين.

٤ـ قد كنا نظن أن التشابه بين شخصين على مستوى الشكل أو الموهبة، وأن ما يجمع بينهما على مستوى التخصص والعمل والمجال يشكل حافزًا لهما على التحابب والتقارب حيث يرى كل واحد نفسه في شبيهه، لكن الذي تبين أن الأمر ليس كذلك، إذ إن شدة التنافس تكون بين المتشابهين والزملاء وأصحاب التخصص الواحد والمهنة الواحدة.

وهذا مفهوم حيث إن الناس مفطورون على حب تفوقهم على غيرهم، وحين يزيد اكتشاف تميُّز شخص من الأشخاص فإننا نقارنه بأشباهه وأهل اختصاصه، كما أن المتشابهين يتنافسون على جمهور واحد وزبائن موحدين، وهذا يعني أن الذي

يحرمك من الشعور بالتفوق والغلبة هو الأكثر شبها بك على مستوى السمات والخصائص، وفي هذا المعنى يقول الإمام الغزالي: (والحسد يكثر بين أصحاب الحِرف والمهن المتماثلة وأرباب المقاصد المشتركة، ولذلك فإنك ترى العالم يحسد العالم دون العابد، والعابد يحسد العابد دون العالم، والتاجر يحسد التاجر دون العابد، وكذلك الشجاع يحسد الشجاع ولا يحسد العالم، لأن مقصده أن يُذكر بالشجاعة ويشتهر بها ويتفرد بهذه الخصلة، والعالم لا يزاحمه على هذا الغرض)[1].

نعم إن الشحاذ لا يحسد أصحاب الملايين، وإنما يحسد شحاذًا مثله، وإن التنافس بين الأقران والأشباه يحمل على الحسد والمكيدة أو محاولة الحط من القدر والمكانة وإيقاع الأذى. وهذا قد يتم بطريقة خفية وغامضة، وكل ذلك من الرذائل وأمراض القلوب والتخلص منها واجب، ومجاهدة النفوس على البعد عنها مما يُتقرب به إلى الله تعالى.

وقد كان علماؤنا على وعي تام بهذه الإشكالية ولهذا قالوا: (كلام الأقران بعضهم في بعض يطوى ولا يروى). نعم لأن جرح القرين لقرينه يظل مظِنَّة للحسد والتنافس مهما كانت مكانة الناقد والجارح وعدالته.

٥ـ إذا كان الآخر مرآة لي فلا ينبغي لي أن أشوه المرآة التي أرى فيها نفسي، لأنني حينئذ لن أرى ذاتي وأوضاعي على حقيقة ما هي عليه، ولهذا فإن المنصف في النظر إلى الآخرين يحسن إلى نفسه قبل أن يحسن إليهم.

إن أوروبا وأمريكا تشكلان (آخر) بالنسبة إلى المسلمين، ونحن نشكل (آخر) بالنسبة إلى الأمريكيين والأوربيين بسبب ما بيننا وبينهم من الحروب والصراعات التاريخية الدامية، وهذا على الصعيد الديني والثقافي؛ أما على الصُعد الصناعية والاقتصادية فإن الصين هي الآخر بالنسبة إلى الغربيين، وأيًا كان الأمر؛ فإنَّ علينا أن نعترف بفضائل الخصوم والمنافسين، فهذا من القيام لله تعالى بالقسط والعدل ومن تحاشي الظلم وتطفيف المكاييل، وهذا لا يعني بأي حال التنازل عن هويتنا والتنكر لقيمنا ومبادئنا العليا، لكنه يعني ألا نسمح لأنفسنا بالجهر بخصائص وميزات ليست عندنا، حيث إن التعصب للذات الفردية والقومية قد يدفع أصحابه إلى الغرق في بحر من الغرور والكبر والوهم وسوء الفهم، ويحرمهم بالتالي من المساءلة والمحاسبة والمراجعة وتمهيد سبل النهوض والتقدم.

إن كل ما ذكرته عن العلاقة بالآخر هو للآخر المطلق، أما العلاقة بالآخر المقيد فلها أحكامها وآدابها وذوقياتها واستحقاقاتها حيث يكون للعلاقة بين الأزواج والأرحام والأصدقاء والجيران حقوق وآداب... ويكون للعلاقة بالآخر العدو أحكام وأشكال وطرق للتعامل والتواصل.

العلاقة بالآخر تحتاج إلى تبصر ونقد أعمق وأوسع بكثير مما ذكرتُه ولكن حسبك من القلادة ما أحاط بالعنق.

(١) بحث بعنوان «كلام الأقران بعضهم في بعض» بقلم أيمن محمود مهدي، بتصرف عن الإحياء ١٩٥/٣.

ربيع التغيير في العمل الحركي الإسلامي

الأستاذ نبيل شبيب ـ كاتب وإعلامي سوري

توجد جوانب عديدة يمكن طرحها حول مضمون العنوان أعلاه إنما يراد في هذه المقالة الموجزة تركيز الحديث على محاور محددة، دون إغفال سعة الموضوع المطروح وما يحتاج إليه من متابعة تفصيلية أعمق.

ولا يتناول الموضوع محور «الإسلام» نفسه، فمحاولات التأثير عليه بمعاداته وعبر الاتهامات والتضليل وعبر الإساءات المباشرة، جميع ذلك موجود قبل حدث ربيع التغيير وسيبقى من بعد، كما أنه موجود قبل ولادة العمل الحركي الإسلامي، وسيبقى من بعد، ويبقى الإسلام كما أنزله الله؛ هو مصدر النظر في تقويم كل ما أو من ينتسب إليه بما في ذلك العمل الحركي. أما المحاور المقصودة في هذه المقالة فهي:

١ـ مقدمة: ماهية العلاقة بين العمل الحركي الإسلامي وربيع الثورات الشعبية العربية.

٢ـ المنطلق: أوضاع العمل الحركي الإسلامي في نهاية العقد الأول من مسار ربيع الثورات.

٣ـ المطلوب: حاجة العمل الحركي الإسلامي إلى ربيع التغيير الذاتي ليكون على مستوى احتياجات مستقبلية.

ماهية العلاقة بالحدث التاريخي

يسود توافق عام أنّ ربيع الثورات الشعبية في المنطقة العربية انطلق انطلاقة شعبية من بداياته، وتجددت موجاته الثورية التالية على النحو ذاته، فلا أحد يزعم أن أزمّة قيادته كانت في أيدي هذه المجموعة أو تلك أو هذا الاتجاه أو ذاك، وإن ظهرت جولات صراع سلبي عديدة وجولات تنافس مشروع معدودة، بين أكثر من اتجاه في كل بلد على حدة.

هذا الوصف للانطلاقة بالشعبية لا يغفل عن أن الغالبية الكبرى من الشعوب مسلمة عقديا، **وأن هوية مجموع سكان المنطقة هوية تنتسب إلى إرث دائرة معرفية فكرية وحضارية واجتماعية ذات ارتباطات تاريخية وثيقة بالإسلام وقيمه وتوجيهاته.** فكلمة شعبية لا تغفل عن ظهور آثار الهوية الشعبية في الشعارات والفعاليات والأطروحات المنهجية، وهي ذات «نكهة» إسلامية أصيلة وسطية، رغم جهود تشويهها بما نُشر من أشكال التطرف والتعنت قبل الثورات وأثناءها.

إن العمل الحركي الإسلامي واجه مسؤولية

كبرى ربما لم يكن استعد لها من قبل، نتيجة ما كان لهذا الانتساب العقدي والحضاري من أثر في بلورة المعالم الكبرى **للمسارات الانسيابية** للحدث التاريخي، وهذا من البدايات الأولى، وهو ما سيستمر إلى أن يستقر التحول الجذري الجاري في واقع المنطقة، وصحيح أن المآلات الأخيرة في علم الغيب المستقبلي، إنما المقصود بالاستقرار هنا هو ظهور معالم كبرى لتلك المآلات، تسمح بالقول «قد وصلنا» إلى أهم الغايات الأساسية من انطلاقة الحدث.

كلمة انسيابية في وصف مسارات التغيير مقصودة، فلا توجد لحظة ثابتة للمشهد بعد عام أو عشرة أعوام أو أكثر أو أقل، إنما اعتدنا فيما نطرح فكريا أو إعلاميا على البحث عن تواريخ معينة، وأن نتأثر بالأرقام عند جرد حساباتنا، وهو ما يغلب في الوقت الحاضر على أطروحات تتناول ما وصلت إليه المسارات الثورية التغييرية بعد «عقد» من الأعوام، أشعلتها «لحظة» ما صنعه بوعزيزي بنفسه في تونس. ويبقى من الضروري التأكيد على أنه، **لا يوجد تقويم بمضمون جازم لحصيلة هذه المسارات الانسيابية فكل تقويم، تحليلي عام أو بحثي محكم، إنما يصف نقطة آنية أو محطة من محطات آنية متتالية، ينطوي كل منها على حصيلة تبدل جزئي سابق بين يدي بذور تبدل جزئي لاحق.**

أوضاع الاتجاه الحركي الإسلامي

جميع أصحاب الرؤى الذين سبق وجودهم زمنيا لحظة مشهد بوعزيزي التاريخية، وليس أصحاب الرؤى الإسلامية فقط، ينظرون إلى مسارات الثورات الشعبية ويقوّمونها بمنظور رؤاهم ومعاييرها. هذا ما يسري على العلماني والإسلامي، وعلى القومي والوطني، وما يتفرع عن جميع ذلك. ومن حق أي فريق حركي، إسلامي وغير إسلامي، أن يراجع نفسه ورؤاه ومنطلقاته، فيثبت تفاصيل ذلك أو يعدلها ويطورها ليؤثر تأثيرا أكبر في اتجاه «أهدافه» في المسارات الانسيابية الجارية، ولكن من الأفضل له ولاستمرارية وجوده مع الحدث التاريخي ومن بعده، ألا يغفل عن معايير جديدة أوجدها «الحدث الجديد» عبر ما طرأ من مستجدات خلال عشرة أعوام أو أكثر أو أقل، مرت على انطلاقته.

هذا مما يشير إليه مثلا أستاذ العلوم السياسية ورئيس تحرير موقع «إسلام أون لاين» سابقا هشام جعفر، في التعريف بكتابه «سردية الربيع العربي ورهانات الواقع» الصادر عن دار المرايا عام ٢٠٢١م، إذ يقول:

(هناك سردية جديدة لانتفاضات الربيع العربي تعلن نهايات صيغ القرن العشرين. وفي القلب منها دولة ما بعد الاستقلال والحركات السياسية الإسلامية والعلمانية التي استندت إلى «أيديولوجيات شمولية» وأننا بصدد صيغ جديدة لمّا تَتَمَأسسْ بعد).

ويبدو للوهلة الأولى كما لو أن هذا الطرح يصور «الربيع العربي» لحظةً تاريخية قائمة بذاتها، والواقع أن الكاتب يتحدث عن مسار انسيابي عندما يتحدث عن «نهايات» الصيغ السابقة، وقد

أشرف من قبل على عملية حوار بهذا الصدد على مستوى الحركات السياسية في مصر بين عامي ٢٠١٤ و٢٠١٥م، ولمزيد من التفصيل يمكن الرجوع إلى الموقع الشبكي لهشام جعفر[١].

وظهرت قبل تلك النهايات مقدماتٌ سبقت أو واكبت انطلاقة الثورات الشعبية، فتاريخ ٢٠١١م هو بدوره محطة سبقتها محطات تاريخية كبرى أخرى. كذلك فالعلاقات البشرية شهدت من قبل تحولات تاريخية، ومن ذلك مثلا ما صنعه «تسارع» نبض متغيرات عالم التواصل والاتصالات ونبض تقنيات حديثة أوجدت قوالب جديدة للتعبير (وللعمل) الفكري والسياسي والاجتماعي وغير ذلك مما ينطوي على «عنصر تغييري»، فلم تعد حتى «مراكز البحث العلمي» ـ كمثال ـ قادرة على التنافس بالوصول إلى نتائج «منفصلة» عن بعضها بعضا، بل تحتم عليها الانفتاح والتكامل فيما بينها، وكذلك التواصل والتشبيك بين أجهزتها وأعمالها، لتواكب سرعة العالم المعاصر، وسرعة تطور احتياجاته.

> العمل الحركي الإسلامي مستهدف أكثر من سواه لأنه مسؤول أكثر من سواه عن الارتفاع بنفسه إلى مستوى التفاعل مع المسارات التاريخية الجارية

(١) الموقع الشبكي لهشام جعفر: (https: //heshamgaafar.com)

إن العمل الحركي الإسلامي مسؤول أكثر من سواه عن الارتفاع بنفسه إلى مستوى التفاعل مع المسارات التاريخية الجارية، ولهذا فهو مستهدف أكثر من سواه مع استهداف الإرادة الشعبية الثائرة من أجل التحرر والتغيير.

ويتطلب التركيز على الغرض من هذا الموضوع أن نتجاوز مَن طرح التغييرات «المطلوبة» من العمل الحركي مع رفض المنطلق الإسلامي للعمل أصلا، وتسميته «الإسلام السياسي» كمصطلح مختلف عليه ومستهلك فكريا وإعلاميا، ويوجد على هذا الصعيد كثير من الكتابات لا سيما في فرنسا، أما بالعربية فمثال ذلك ما نشره موقع العربي الجديد[٢]، يوم ١٧ / ٧ / ٢٠١٨م بقلم محمد أبو رمان تحت عنوان «الحراك الإسلامي بعد الربيع العربي».

بينما يوجد بالمقابل عدد من الباحثين والكتاب الذين يطرحون التغييرات الواجبة على العمل الحركي الإسلامي مع الحرص على المهمة التي وجد من أجلها، وإن تعددت وجهات النظر في التفاصيل. مثال ذلك ما ورد في مركز دراسات الجزيرة تحت عنوان «التحولات في الحركات الإسلامية ـ ٦ سنوات ما بعد الربيع العربي»، بإشراف شفيق شقير، بتاريخ ٦ / ٩ / ٢٠١٦م[٣].

إن حديث المراجعة والتقويم يعني فيما يعنيه النظر في عوامل القصور الذاتي ضمن العمل الحركي

(٢) انظر (https: //www.alaraby.co.uk)

(٣) انظر (https: //studies.aljazeera.net/ar/files/2016/09/6-160922142449696.html)

الإسلامي نفسه، إنما لا ينبغي تجاهل العوامل الخارجية أيضا، وهي بالغة الأهمية في مراجعة تقويمية لأوضاعه مع مرور العقد الأول على ربيع التغيير الثوري.

من ذلك: كان نفي وجود تأثير إسلامي على حركة «التحرر» الكامنة في الثورات الشعبية، من حيث «غياب» وجود دور فاعل لتنظيمات العمل الحركي الإسلامي في تحريك تلك الثورات ناهيك عن توجيهها، وبالمقابل فإن الجهود الإقليمية والدولية المضادة للتغيير في ربيع الثورات الشعبية اقترنت بحملات عدائية شرسة ضد ذلك العمل الحركي ـ وإن استهدفت سواه أيضا ـ وواكبتها حملات فكرية وإعلامية متحاملة عليه بهدف تشويهه، بينما بقيت حملات الدفاع المشروط محدودة نسبيا، وهذا بمجموعه مع عدم توازنه هو الأرضية التي ساهمت في وصول أوضاع العمل الحركي الإسلامي إلى حصيلة سلبية على وجه الإجمال.

من أهم السلبيات في واقع العمل الحركي في نهاية العقد الأول لربيع الثورات الشعبية العربية ذلك الانفصام المتزايد في ساحات الفكر والعمل بين الجيل الذي نشأ في بداية ربيع الثورات وما زال يمثل الحاضنة الرئيسية لها وبين العمل الحركي الإسلامي بتنظيماته التاريخية وأساليبه التقليدية.

من ملامح التغيير المطلوب

إذا كانت مواكبة التطورات الجارية والمتسارعة بإحداث تطوير ذاتي على أدوات العمل والتغيير في عصرنا أمرا محتما في واقع المجتمعات والدول المستقرة نسبيا، فهي مفروضة عينيا على أدوات العمل والتغيير ـ كالعمل الحركي الإسلامي وغيره ـ في واقع مجتمعاتنا ودولنا غير المستقرة عموما، من قبل العقد الأول من حقبة التغيير الثوري، وما زالت غير مستقرة حتى الآن.

١ـ في مقدمة ما يحتاج إليه العمل الإسلامي بغض النظر عن أشكال ممارسته الحركية وواجب تطويرها هو استعادة علاقة الثقة مع عموم الفئات الشعبية في المجتمعات العربية والإسلامية، في البلدان التي شهدت حراكا ثوريا متفاوت القوة والنتائج، وفي البلدان الأخرى على السواء. وهذا ما يتطلب تطوير الطرح العملي لا الفكري والنظري فحسب، ويتطلب تحقيق إنجازات مرئية وليس الحديث عن أهداف وغايات «جيدة» سواء القديم منها أو الجديد.

٢ـ لا بد من ظهور قيادات جديدة في مواقع التقويم والتخطيط للعمل، وفي مواقع صناعة القرار وتنفيذه، وهذا بغض النظر عن تسجيل إيجابيات أو سلبيات في تقويم إنجازات القيادات الحالية أو قصورها، لا سيما فيما يتعلق بمواكبة ربيع الثورات الشعبية، فتجدد القيادات شرط لا غنى عنه في مواكبة المتغيرات، مثل ما يصنعه ربيع الثورات الشعبية في مختلف الميادين الفكرية والاجتماعية والعمرانية، وهذا ما لا يقتصر على

سقوط أنظمة وقيام أخرى، بل يشمل مجموع البنية الهيكلية للمجتمعات والدول.

٣ـ لا غنى عن بذل جهود قصوى وعاجلة في ميدان التغيير الضروري للبنية الهيكلية للعمل الحركي، وفق رؤى حديثة تعتمد التشبيك مكان التنظيم، وتجمع بينهما في حالات التعاون العلمي التخصصي، وتعتمد التكامل بين الإنجازات مع سلوك طرق التخصص في تحقيقها، وتعتمد التقنيات الحديثة في مختلف الميادين.

٤ـ لا يتحقق شيء مما سبق دون اعتماد طرق التأهيل والإعداد والتدريب إلى جانب اتباع الطرق الحديثة في التعليم والتربية، ومع مواءمة أحدث ما وصلت إليه المجتمعات الحديثة على هذا الصعيد، مع منظومة القيم الذاتية العقدية القويمة والحضارية الإنسانية، كما نعرفها عن الإسلام كما أنزله الله عز وجل لخير جنس الإنسان في دنياه وفتح أبواب الخير له في آخرته.

والحمد لله رب العالمين.

جهود العلامة الشيخ محمد علي الصابوني في علم التفسير

الباحث: طارق طه مكرم الله ـ باحث دكتوراه في كلية معارف الوحي ـ ماليزيا

الحمدُ للهِ الذي أنزلَ الفرقانَ على عبدِه ليكونَ للعالمينَ نذيرًا، والصَّلاةُ والسَّلامُ على سيِّدِنا محمَّدِ بنِ عبدِ اللهِ، الذي أرسلَه ربُّه شاهدًا ومبشرًا ونذيرًا، وداعيًا إلى اللهِ بإذنِه وسراجًا منيرًا. أما بعدُ:

فإن القرآن الكريم كتاب الله الخالد، والمعجزة الدائمة الباقية، أنزله هداية للعالمين؛ فهو خطاب الله إلى الإنسانية جميعا، يستحث العقول لتنهض لسبر معانيه، والوقوف على مراد الله فيه، وإدراك مقاصده، والتحقق بوصاياه، والامتثال لأوامره ونواهيه، والتواصل مع رسالته. وقد أيقن المسلمون أنه لا شرف إلا والقرآن سبيل إليه، ولا خير إلا وفي آياته دليل عليه، ولا بدع أن يشتغل المسلمون بالقرآن تلاوة وحفظًا ودرسًا، فراحوا يثورون آياته ليقفوا على ما فيه، ولا عجب في ذلك، فهو أس وجودهم المعنوي، ومبنى هويتهم الحضارية، وقوام كينونتهم الاجتماعية، وسبيل سعادة الدنيا وخير الآخرة.

وقد تعددت لدى المسلمين سبل التعامل مع القرآن، وتنوعت عندهم مناهج فهمه استنباطا وتنزيلًا، وما زعم أحد منهم أبدًا أنه استنفد معانيه، وبلغ الغاية في استنباط أحكامه، ذلك أنه: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾ [الكهف: ١٠٩]. ولذلك لم يخل عهد من عهود التاريخ ولا جيل من أجيال المسلمين؛ من أناس يتدبرون القرآن، ويتفكرون في أقوم المناهج لتفسيره، ويبحثون في أنجع الوسائل للعمل بأحكامه واتباع هديه.

وفي هذا السياق من مكانة القرآن في حياة المسلمين ووجودهم، وفي ظل عصر طغت فيه المادة، ومحاولة صرف الناس عن دينهم، كانت الحاجة شديدة إلى لون من التفسير تَتَوَجَّه العناية الأولى فيه إلى هداية القرآن على الوجه الذي يتفق مع الآيات الكريمة المنزلة في وصفه، وما أنزل لأجله من الإنذار والتبشير والهداية والإصلاح، مع سهولة العبارة، ومراعاة أفهام صنوف القارئين.

ومن أبرز المفسرين الذين تناولوا هذا اللون من التفسير العلامة الشيخ محمد علي بن جميل الصابوني. فمن هو؟ وما أبرز جهوده في ميدان تفسير القرآن الكريم؟

تعريف عام

بالشيخ محمد علي الصابوني:

ولد الشيخ محمد علي الصابوني بمدينة حلب عام ١٩٣٠م.

تخرج من الثانوية الشرعية ـ الخسروية ـ في سوريا، وأكمل دراسته في الأزهر فنال شهادة العالية عام ١٩٥٢م، ونال شهادة التخصص في القضاء الشرعي عام ١٩٥٤م، حيث كان موفدًا نظرا لتفوقه من جهة وزارة الأوقاف السورية لإتمام دراسته العليا[١].

أُتيح للشيخ الصابوني أن يتلقى تعليمه على يد كبار العلماء بسوريا، بالإضافة لدراسته في الأزهر الشريف، وقد مكنه ذلك من أن يجالس كوكبة من أساطين الأساتذة المحققين، وكبار العلماء الراسخين ويتتلمذ لهم، فتلقى معارفه وعلومه عن كثير من جهابذة أهل النظر والاجتهاد؛ ومن هؤلاء الأعلام:

ـ والده: الشيخ جميل الصابوني الذي تلقى عليه مبادئ العلوم العربية والشرعية.

ـ الشيخ محمد نجيب سراج عالم الشهباء (ت. ١٣٧٣هـ/ ١٩٥٤م).

ـ الشيخ أحمد الشماع.

ـ الشيخ محمد سعيد الإدلبي (ت. ١٣٧٠هـ/ ١٩٥١م).

ـ الشيخ محمد راغب الطباخ (ت. ١٣٧٠هـ/ ١٩٥١م).

ـ الشيخ محمد نجيب خياطة شيخ القراء بمدينة حلب (ت. ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٧م)[٢].

اشتغل الشيخ الصابوني بعد تخرجه من الأزهر بالتدريس لمدة ثماني سنوات في الثانويات العامة بحلب، ثم انتدب للتدريس بمكة المكرمة في كلية الشريعة، وكلية التربية بجامعة الملك عبد العزيز، وقد أمضى في التدريس بكلية الشريعة ما يقارب ثمانية وعشرين عامًا، ونظرًا لنشاطه العلمي في البحث والتأليف، فقد رأت جامعة أم القرى أن تسند إليه تحقيق بعض كتب التراث الإسلامي، فعيّن باحثًا علميًا في مركز «البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي»[٣].

> عرف الشيخ الصابوني بجرأته في قول كلمة الحقّ، والنصح والتوجيه

وقد اشتهر الشيخ الصابوني بجرأته في قول كلمة الحقّ، فقد كان لا يتورع عن النصح والتوجيه، مهما علا شأن مخاطبه، وحمل هموم أمته أينما حل وارتحل فدافع عن المظلومين والمضطهدين، ووجه الرسائل الشديدة للحكام المقصرين في حق شعوبهم، وقد لاقى لأجل ذلك الكثير من المتاعب، فحُرم من دخول بلده سوريا لمدّة قاربت الأربعين عامًا، ولكن لم يمنعه ذلك

(١) انظر: المصدر نفسه. وتبين لنا من خلال النظر في بعض الوثائق الشخصية الخاصة بالشيخ الصابوني أن مولده هو ١٠/ ٣/ ١٩٣٠م. وقد حصل الشيخ على ليسانس كلية الشريعة من الأزهر في سنتين بدلًا من أربع سنوات وفي هذا ما يدل على ذكاء الشيخ ونبوغه المبكر.

(٢) عمر عبسو، الشيخ العالم المفسر محمد علي الصابوني، http: //www.odabasham.net/، شوهد ١/٥/٢٠٢١م.

(٣) محمد عدنان كاتبي، مقال بعنوان: محمد علي الصابوني، https: //islamsyria.com/، شوهد١/٥/٢٠٢١م.

من قول كلمة الحق.

وعندما قامت الثورة في سوريا، كانت مواقف الشيخ واضحة جلية في الوقوف مع أبناء الشعب السوري ودعم ثورتهم، ودعوة النظام إلى الكف عن إراقة الدماء، وصرح كثيرا أن الحاكم الذي يتجبر على شعبه وينحرف كل الانحراف عن دين الله هو مجرم يجب التصدي له، مع بيان أن مساندة مطالب المتظاهرين السلميين واجب شرعي، كما حذر الشيخ الصابوني من مراوغة النظام وحيله المخادعة، واصفًا بشار الأسد بمسيلمة الكذاب[1].

انتقل الشيخ محمد علي الصابوني إلى جوار ربه يوم الجمعة ٦ شعبان ١٤٤٢هـ/ ١٩ مارس ٢٠٢١م. في مدينة يلوا التركية، عن عمر ناهز ٩١ عامًا.

ينتمي الشيخ الصابوني رحمه الله إلى مدرسة علمية وتقاليد سورية عريقة في تدريس العلوم، وتتميز هذه المدرسة بتركيزها على تقريب العلوم الإسلامية للدارسين، بالإضافة لعوام المسلمين، مع المحافظة على الصرامة العلمية، وبأسلوب كتابة سهل ويسير، مطرّز بالطابع الأدبي في كثير من الأحيان.

لقد خلف الشيخ الصابوني تراثًا علميًا وافرًا تنوع بين الفقه، والتفسير، والحديث، والردود على مسائل عارضة، ومناقشات مع بعض العلماء، فأسهم في إثراء المكتبة الإسلامية أيما إثراء، غير أن أبرز إنتاجه كان في التفسير، وقد لاقت جهوده في التفسير قبولا واسعا في العالم الإسلامي، فترجمت مجموعة من كتبه إلى لغات عديدة، ما يدل على حاجة المسلمين الماسة لهذا اللون من التفاسير السهلة، قريبة المنال.

إنتاج الشيخ محمد علي الصابوني في التفسير:

ولمَّا كان علم التفسير رئيس العلوم الدينية، والاشتغال به من أجل المطالب الشرعية التي صرف إليها العلماء المحققون عنايتهم، وقدحوا في تحصيلها أزنُد قرائحهم؛ كان لزامًا تسليط الضوء على إسهامات العلامة الصابوني في علم التفسير الذي تنوّع إنتاجه فيه ونذكر منها الآتي:

ـ اختصار لكتب تفسيرٍ بالمأثورِ شهيرةٍ ومعتمدةٍ عند عموم المسلمين، مثل مختصر تفسير ابن كثير، ومختصر تفسير الطبري: وقد سلك فيهما مذهبا واضحا في التلخيص، وهو التركيز على الرأي الراجح لدى المفسر، وذكر أحاديث قليلة صحيحة، ونصوص للصحابة ومشاهير التابعين مما ثبت، وحذف الإسرائيليات، وتجنب الخوض في أي مسائل أخرى خارجة عن التفسير في هذه المختصرات، مما لا ضرورة له من الأحكام والخلافات الفقهية، والاقتصار على الضروري منها دون حشو أو تطويل.

ـ درة التفاسير على هامش القرآن الكريم: وقد خرج هذا الكتاب بأسلوبه الذي عودنا عليه فضيلته، سهل العبارة مع ذكره لأسباب النزول والشواهد من الأحاديث النبوية الصحيحة، وكانت تنبيهاته المهمة غاية في الدقة تلفت نظر القارئ إلى ما خفي من دقائق التفسير، والذي سعى فيه لتلبية

(١) تلفزيون سوريا، وفاة الشيخ محمد علي الصابوني، www.syria.tv، شوهد ٢٠٢١/٥/١م.

حاجة القارئ العادي لكتاب الله الذي يروم المعنى في زُبْدته بعيدا عن المطولات.

ـ التفسير الواضح الميسر: وهذا الكتاب وسط بين التفاسير سالفة الذكر، وبين تفسيره الموجز على هامش المصحف، فمادته ذات أثرة عند جمهور مثقفي المسلمين، الذين ينزعون نحو شفاء الغليل بلون من التفسير يجاوز الإيجاز ويقصر عن الإسهاب.

ـ قبس من نور القرآن الكريم: وهي دراسة موضوعية موسعة لسور القرآن الكريم، رام الشيخ الصابوني منها بيان مقاصد كل سورة وأهدافها، وتوضيح الخطوط العريضة لما احتوته من آداب، وأحكام، وتشريع، وما هدفت إليه من توجيه وإرشاد.

وهذه الدراسة في الحقيقة تعتبر ضمن قائمة التفسير الموضوعي بالمعنى الأخص؛ أي للسورة، وهو ما يسعى المفسر فيه إلى اكتناه النسق الكلي الذي ينتظمها، أو استنباط المقاصد الكبرى التي تدور عليها آياتها، أو الوقوف على المعاني الأساسية التي تربط بين أجزائها. ويشير الشيخ الغزالي إلى أن التفسير الموضوعي ينقسم إلى قسمين فيقول: (أحدهما: تتبع قضيةٍ ما في القرآن كله، وشرحها على ضوء الوحي النازل خلال ربع قرن تقريبًا، والثاني: النظر المتغلغل في السورة لمعرفة المحور الذي تدور عليه، والخيوط الخفية التي تجعل أولها تمهيدًا لآخرها، وآخرها تصديقًا لأولها، أو بتعبير آخر تكوين صورة عاجلة لملامح السورة كلها)[1].

فإذا أنعمنا النظر في كتاب «قبس من نور القرآن الكريم » نجد أثر هذا المنهج عند الشيخ الصابوني واضحا، وتطبيقه جليا، حيث إنه في تفسيره هذا كان يُعَنْوِنُ لكل مجموعة من آيات السورة موضوعيا. بمعنى آخر؛ كان يقسم السورة إلى مقاطع، كل مقطع يتناول موضوعًا واحدًا، وبالمثال يتضح المقال ـ على أنه سلك في هذا الكتاب مسلك التفسير الموضوعي بالمعنى الأخص ـ فنجده قد قسم السورة إلى موضوعات، وهذا بادٍ من فهرسة كل سورة. ففي سورة الأنعام؛ قد عنون موضوعات هذه السورة بالآتي « الثناء على خالق الأكوان، الأدلة على الرسالة، طغيان أهل مكة، إلخ...

وقد رأى الصابوني أن هدفها ـ ككل السور المكية ـ كان التركيز على قضية الألوهية، وقضية الرسالة والوحي، وقضية البعث والجزاء، إلا أن السورة لها طابع خاص تمتاز به وهو (التأكيد على وحدانية الله تعالى) حيث بين هذا الطابع وتتبعه على امتداد السورة الكريمة[2].

ـ تحقيق كتاب معاني القرآن للإمام أبي جعفر النحاس: قام الشيخ الصابوني بتحقيق هذا الكتاب الذي يعد واحدًا من أهم كتب التفسير، وقد بذل فيه جهدًا كبيرًا، وعلى الرغم من اعتماده

(١) محمد الغزالي، تراثنا الفكري في ميزان الشرع والعقل، (القاهرة: دار الشروق، ط٥، ١٤٢٤ه/٢٠٠٣م)، ص١٢٨ـ ١٢٩.

(٢) انظر: محمد علي الصابوني، قبس من نور القرآن الكريم، (القاهرة: دار السلام، ط١، ١٤١٨ه/١٩٩٧م)، ص١٢٣ ـ ١٢٥.

على المخطوطة الوحيدة للكتاب إلا أنه اجتهد في تحقيقها؛ مستعينًا بالكثير من المراجع، والكتب الخاصة بالتفاسير، واللغة، والحديث، وغيرها؛ وبالفعل خرج هذا الكتاب في ستة أجزاء، وتم طبعه تحت اسم جامعة أم القرى بمكة المكرمة بمركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي.

ترجم صفوة التفاسير إلى عدة لغات

صفوة التفاسير:

هذا الكتاب يعتبره كثيرون درة أعمال الشيخ الصابوني في التفسير، وقد رزق قبولًا واسعًا، وترجم إلى العديد من اللغات، ولهذا نقف عليه وقفة تفصيلية.

يمثل هذا التفسير مرحلة متقدمة لطلاب العلم غير المختصين في التفسير، بحيث يتيح لهم ملخصا وافيا للقضايا اللغوية، والبلاغية، والنكات الهامة في تفسير الآيات.

وقد جمعه الشيخ الصابوني من تفاسير كبيرة معروفة مثل الطبري، والقرطبي، والزمخشري، وابن كثير، وغيرها وكتبه بلغة سهلة، كما يمثل هذا التفسير مرحلة متقدمة للمثقف المسلم الراغب في معرفة أعمق بالقرآن الكريم بعيدًا عن المطولات الكبيرة جدا، التي لا يملك فهمها إلا من كان له دربة في قراءة التراث. وبالرغم من الانتقادات التي وجهت لصفوة التفاسير ـ وهي في مجملها مذهبية لا علمية ويغلب عليه روح التعصب والغلو ـ إلا أنه يظل أحد أشهر التفاسير في العصر الحديث للمثقف المسلم سيما طالب العلم غير المختص بالتفسير.

سبب التأليف: قد أفصح الشيخ في مقدمة تفسيره عن الأسباب الباعثة على كتابة التفسير على المنهج الذي ارتضاه في الكتابة، فقال واصفًا حال المجتمع: (وإذا كان المسلم قد اضطرته الدنيا إلى أن يشغل وقته في تحصيل معاشه، وضاقت أيامه عن الرجوع إلى التفاسير الكبيرة، التي خدم بها أسلافنا كتاب الله تعالى، تبيانًا وتفصيلًا لآياته، وإظهارا لبلاغته، وإيضاحًا لإعجازه، وإبرازًا لما حواه الكتاب المجيد من تشريع وتهذيب وأحكام وأخلاق وتربية وتوجيه... فإن من واجب العلماء اليوم أن يبذلوا جهدهم لتيسير فهمه على الناس، بأسلوب واضح، وبيان ناصع، لا حشو فيه ولا تطويل ولا تعقيد ولا تكلف، وأن يبرزوا ما في القرآن من روعة الإعجاز والبيان، بما يتفق وروح العصر الحديث، ويلبي حاجة الشباب المثقف المتعطش إلى التزود من علوم القرآن الكريم ومعارفه.

ولم أجد تفسيرًا لكتاب الله عز وجل على ما وصفت رغم الحاجة إليه، وسؤال الناس عنه، ورغبتهم فيه؛ فعزمت على القيام بهذا العمل، رغم ما فيه من مشقة وتعب، واحتياجه لوقت لا يتاح في هذا الزمان، مستعينًا بالله الكريم، متوكلًا عليه، سائلًا إياه أن يعينني على إتمام هذا الواجب،

وأن يوفقني لإخراجه بشكل يليق بكتاب الله تعالى، يعين المسلم على فهم آيات القرآن، والتزود من بيانه، ما يزيده إيمانا ويقينا، ويدفعه إلى العمل الجاد الموفق إلى مرضاة الرب جل وعلا).

سبب التسمية: يوضح الشيخ الصابوني ذلك بقوله: (وقد أسميت كتابي «صفوة التفاسير» وذلك لأنه جامع لعيون ما في التفاسير الكبيرة المفصلة، مع الاختصار والترتيب، والوضوح والبيان، وكلي أمل أن يكون اسمه مطابقًا لمسماه، وأن تستفيد منه الأمة الإسلامية، بما يوضح لها السبيل الأقوم، والصراط المستقيم)[1].

طريقة المؤلف في صفوة التفاسير:

وقد سلك الشيخ الصابوني في تفسيره الكتاب العزيز أسلوبا تبيّنه النقاط الآتية:

أولًا: بين يدي السورة، وهو بيان إجمالي للسورة الكريمة، وتوضيح لمقاصدها الأساسية.

ثانيًا: المناسبة بين الآيات السابقة والآيات اللاحقة.

ثالثًا: اللّغة مع بيان الاشتقاق اللغوي والشواهد العربية.

رابعًا: سبب النزول.

خامسًا: التفسير.

سادسًا: البلاغة.

سابعًا: الفوائد واللطائف.

ثناء العلماء على «صفوة التفاسير»:

يقول الشيخ الغزالي: (إن الثقافة القرآنية تحتاج إلى قلم سهل العبارة، فياض الأداء، بعيدًا عن المصطلحات الفنية، والمناقشات الفلسفية، همّه الأكبر إبراز السياق السماوي، والوصول به إلى نفوس الجماهير دون تكلف أو التواء).

وقد نجح فضيلة الشيخ محمد علي الصابوني رحمه الله في تحقيق هذه الغاية، إذ يسر تفسير الكتاب العزيز، وجمع في تفسيره جملًا من أقوال الأئمة تتضمن خلاصات علمية وأدبية جعلته غنيًا بالحقائق، والحكم النافعة.

وقد لاحظنا أن الشيخ محمد علي الصابوني قرن في تفسيره بين كثير من مأثورات السلف واجتهادات الخلف، أي أنه جمع بين المنقول والمعقول ـ كما يقولون ـ فيستطيع القارئ أن يرى أمامه اللونين معًا، وأن ينتفع بخير ما في الطريقتين.

> الشيخ الصابوني توسط في مسلكه العلمي بين إيجاز شديد أو إطناب لا يطيقه العصر

كما لاحظنا أن التفاسير الأخرى قد تجنح إلى أحد الطرفين، فإما ايجاز شديد أو إطناب لا يطيقه العصر، ولكن الشيخ محمد علي الصابوني ـ جزاه الله خيرًا ـ استطاع أن يتوسط في مسلكه العلمي

(١) محمد علي الصابوني، صفوة التفاسير، (بيروت: دار القرآن الكريم، ط٤، ١٤٠٢ه/١٩٨١م)، ص٢٠.

فأفاد وأجمل، كما ابتعد عن الشطط الذي وقع فيه البعض حين جازف بذكر نظريات علمية أو أحاديث نبوية لا بد في سوقها من التثبت والتمحيص.

يقول شيخ الأزهر الإمام الأكبر الشيخ عبد الحليم محمود رحمه الله: (أطلعني الأخ الأستاذ محمد علي الصابوني على شيء من كتابه الجديد «صفوة التفاسير» وهو كتاب تحرّى فيه المؤلف ذكر أصح الآراء في تفسير كتاب الله تعالى مع الاختصار والسهولة، وإذا كان اختيار المرء قطعة من عقله، فإنه لا شك أن المؤلف وفق توفيقًا كبيرًا في الاختيار من أمهات كتب التفسير التي رجع إليها على علم وبصيرة)[١].

روائع البيان تفسير آيات الأحكام من القرآن:

لعل هذا الكتاب هو الثاني من حيث الانتشار والاهتمام في العالم الإسلامي بعد صفوة التفاسير، وهو عبارة عن مجموعة كبيرة من المحاضرات، وقد جاء الجزء الأول منه في أربعين محاضرة، كما جاء الجزء الثاني في ثلاثين محاضرة، وهو يعد مرجعًا لكل من كتب في هذا الباب بعده.

مميزاته:

ـ الجمع بين التأليف القديم من حيث غزارة المادة وخصب الفكرة، والتأليف الجديد من حيث العرض، والتنسيق، وسهولة الأسلوب.

ـ الاعتماد على المصادر القديمة مع الاستفادة من المؤلفات الحديثة كتفسير آيات الأحكام للسايس.

ـ امتاز بالصراحة والوضوح في تقرير الواقع الإسلامي في مفهوم آيات الأحكام، ومن ذلك حديثه عن الاختلاط وبيان مفاسده[٢].

ـ الدعوة إلى تطبيق الأحكام الفقهية في المجتمعات المسلمة، وإزالة ما أصابها من وهن أو إبعاد[٣].

ـ يظهر من خلال ترجيحاته عدم التعصب لمذهب معين، وإنما يتبع ما ترجح له بالدليل.

ـ أما المنهج المتبع في تناوله آيات الأحكام؛ فيمكن تحديده في عشر نقاط هي:

أولًا: التحليل اللفظي مع الاستشهاد بأقوال المفسرين وعلماء اللغة.

ثانيًا: المعنى الإجمالي للآيات الكريمة بشكل

(١) المصدر نفسه. وقد استفدت هذه الأقوال من تقريظ الكتاب، حيث قام العديد من العلماء بتقريظه من بينهم العلّامة الشيخ أبو الحسن الندوي، والإمام الأكبر شيخ الأزهر فضيلة الشيخ عبد الحليم محمود، وفضيلة الشيخ محمد الغزالي، وسماحة الشيخ عبد الله بن حميد رئيس مجلس القضاء الأعلى بالمملكة العربية السعودية، ومعالي الدكتور عبد الله عمر نصيف الأمين لعام لرابطة العالم الإسلامي، والشيخ عبد الله خياط إمام الحرم المكي الشريف وغيرهم.

(٢) محمد علي الصابوني، روائع البيان تفسير آيات الأحكام من القرآن، (دمشق: مكتبة الغزالي، ط٣، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م)، ج٢، ص٣٨٩.

(٣) محمد علي الصابوني، روائع البيان تفسير آيات الأحكام من القرآن، ج٢، ص٥١.

مقتضب.

ثالثًا: سبب النزول إن كان للآيات الكريمة سبب.

رابعًا: وجه الارتباط بين الآيات السابقة واللاحقة.

خامسًا: البحث عن وجوه القراءات المتواترة.

سادسًا: الحديث عن وجوه الإعراب بإيجاز.

سابعًا: لطائف التفسير وتشمل (الأسرار والنكات البلاغية والدقائق العلمية).

ثامنًا: الأحكام الشرعية وأدلة الفقهاء، مع الترجيح بين الأدلة.

تاسعًا: ما ترشد إليه الآيات الكريمة باختصار.

عاشرًا: خاتمة البحث وتشتمل على (حكمة التشريع) لآيات الأحكام المذكورة[1].

خاتمة:

من خلال هذا العرض السريع لجهود الشيخ الصابوني نستطيع أن نقول إن الشيخ رحمه الله، قام بعمل منهجي وعلمي عظيم، أسهم في توفير مستويات متعددة من التفاسير التي تخدم المسلم المعاصر، وتقرب كتاب الله لعموم المسلمين، بالإضافة إلى طلاب العلم المبتدئين، و هذا عمل نادر بين العلماء المعاصرين.

(١) المصدر نفسه، ج١، ص١١.

أسماء الله الحسنى وأثرها في حياة الفرد وإصلاح ونهضة الأمة

الشيخ عبد العظيم عرنوس

أسماء الله الحسنى ينبوع متدفق ثرٌّ لا ينضب معينه ولا تغيض بركاته، والعلم بأسماء الله وصفاته أشرف العلوم على الإطلاق، وشرف العلوم بشرف المعلوم، ولا يوفَّق للعلم بها وإدراك أسرارها إلا من أنار الله بصيرته وأضاء قلبه ورفرفت روحه وهي تجوب وتحلق لقطف الجنى المثمر لتعيد صياغة النفس وصقل الروح، وبناء الأمة وفق المعاني الكبيرة الرائقة لأسماء الله الحسنى وصفاته العليا، والمتأمل يرى آثار قدرة الله في تصريف شؤون الكون كله بمن فيه وما فيه، والله بقدرته وعلمه أحكم بناء السموات ووازن بين حركة الأجرام السماوية والكواكب والنجوم، قال محمد إقبال:

(من جذاب تتوالى الأنجم

كوكب من كوكب مستحكم)

وقال العالم الألماني بول ميلر: (إن السماء أشبه بمدينة ذات طرق سريعة تتدفق خلالها المجرات والنجوم).

والله بقدرته التي لا حدود لها أمسك السموات والأرض، قال تعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ﴾ [فاطر: ٤١] فهو سبحانه الفعال الحقيقي في الكون والوجود.

ومن قدرته جل وعلا الجمع بين المتناقضات وهذا من أسرار القدرة التي لا يعلم أحد كيف تعمل، قال الأديب الشاعر وليد الأعظمي

جَمعُ النقيضين من أسرار قدرته

هذا السحاب به ماءٌ به نار

ملح الطعام مثال يصيح بالغافين عن حقيقة قدرة الله، فالملح يتكون من الكلور وهو من المواد الكيماوية الخطرة والمهمة أيضًا، ويعتبر من المواد شديدة السمية، والصوديوم عنصر خطر شرِهٌ للماء ويشتعل بمجرد ملامسته الماء، ويبلغ من شدة اشتعال الصوديوم أنك لا تستطيع أن تمسكه بيدك فقد يحرقها بسبب الرطوبة الموجودة فيها، لكن هناك رابطة تربط بين هذين العنصرين وهي عبارة عن رابطة شاردية تتمثل بانتقال ألكترون واحد من الصوديوم إلى الكلور فيتشكل مركب كلور الصوديوم، مركب لا غنى لأي إنسان في الكون عنه ألا وهو ملح الطعام.

فهل سألنا أنفسنا أي قدرة استطاعت أن تجمع بين هذين الشرَّين وتؤلف بينهما: الكلور والصوديوم ليكونا ملحًا لا يستساغ الطعام بدونه، بل لا يمكن أن يعيش الإنسان بدونه.

والماء العذب والأجاج متجاوران، فلا يطغى أحدهما على الآخر، قال تعالى ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ [الفرقان: ٥٣] فأي قدرة تستطيع إقامة هذا الحاجز سوى قدرة الله الطليقة.

قال العز بن عبد السلام: (معرفة أسماء الله الحسنى وصفاته العليا هي أفضل الأعمال شرفا وثمرا)[١]، روى البخاري مسلم واللفظ له عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «لِلَّهِ تِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ اسْمًا، مَنْ حَفِظَهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَإِنَّ اللَّهَ وِتْرٌ، يُحِبُّ الْوِتْرَ». وَفِي رِوَايَةٍ: «مَنْ أَحْصَاهَا».

والله عز وجل عرفنا بأسمائه الحسنى لغرض نفيس قلَّ من يلتفت إلى بريقه ألا وهو التخلق بها واستجلاب معانيها لتكون حركة الإنسان في حياته فردا ومجتمعا وأمة على أنوارها وهديها فيعم الصلاح والإصلاح، ويتأهل الإنسان للقاء الملك يوم القيامة وقد تحقق وتخلق بأسمائه الشريفة، قال أحمد زروق الفاسي: (كل الأسماء يصح التخلق بمعانيها؛ إلا الاسم (الله) فانه للتعلق فقط)[٢].

والأمر العاجب أن الله كرَّم الإنسان أيما تكريم ووهبه من المواهب والصفات ما لا يدخل تحت حصر، كما يعبر محمد الأسدي: (الإنسان نسخة الوجود؛ لأن فيه الطبائع والعناصر والمعدن والنبات والحيوان والإنسان والشيطان والملك)[٣].

وأعلى هذه المواهب والتكريم أن الله خلق آدم على صورته، روى مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِذَا قَاتَلَ أَحَدُكُمْ أَخَاهُ فَلْيَجْتَنِبِ الْوَجْهَ، فَإِنَّ اللَّهَ خَلَقَ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ».

قال ابن حجر: وقال حرب الكرماني في كتاب السنة: (سمعت إسحاق بن راهويه يقول: صح أن الله خلق آدم على صورة الرحمن. وقال إسحاق الكوسج: سمعت أحمد يقول: هو حديث صحيح[٤].

وقال ابن بطال: (وذهب طائفة إلى أن الهاء كناية عن الله تعالى وهذا أضعف الوجوه، لأن حكم الهاء أن ترجع إلى أقرب المذكور، إلا أن تدل دلالة على خلاف ذلك، وعلى هذا التأويل يكون معنى الصورة معنى الصفة كما يقال: عرفني صورة هذا الأمر أي صفته ولا صورة للأمر على الحقيقة إلا على معنى الصفة، ويكون تقدير التأويل أن الله خلق آدم على صفته أي خلقه حيًا عالمًا سمعيًا بصيرًا متكلمًا مختارًا مريدًا، فعرفنا بذلك إسباغ نعمه عليه وتشريفه بهذه الخصال)[٥].

وقال ابن تيمية: (لم يكن بين السلف من القرون الثلاثة نزاع في أن الضمير عائد إلى الله، فإنه مستفيض من طرق متعددة عن عدد من الصحابة، وسياق الأحاديث كلها يدل على ذلك، وهو أيضًا مذكور فيما عند أهل الكتابين من الكتب)[٦].

(١) شجرة المعارف والأحوال للعز بن عبد السلام، ص (١٨).
(٢) (تفسير روح البيان: ج٩).
(٣) (كتاب التيسير والاعتبار للأسدي ص ١٦٩).
(٤) (فتح الباري: ج ٥ ص ١٨٣).
(٥) شرح صحيح البخاري لابن بطال (٩/ ٧).
(٦) بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية (٦/ ٣٧٣).

قال ابن باز: والمعنى عند أهل العلم أن الله خلق آدم سميعا بصيرا، متكلما إذا شاء... وليس المعنى التشبيه والتمثيل، بل الصورة التي لله غير الصورة التي للمخلوق، وإنما المعنى أنه سميع بصير متكلم إذا شاء ومتى شاء، وهكذا خلق الله آدم سميعا بصيرا... لكن ليس السمع كالسمع وليس البصر كالبصر، وليس المتكلم كالمتكلم، بل لله صفاته جل وعلا التي تليق بجلاله وعظمته، وللعبد صفاته التي تليق به، صفات يعتريها الفناء والنقص، وصفات الله سبحانه كاملة لا يعتريها نقص ولا زوال ولا فناء، ولهذا قال عز وجل: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، وقال سبحانه: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص: ٤]، فلا يجوز ضرب الوجه ولا تقبيح الوجه)[1].

فيظهر جليا من هذه النقول أن بني آدم اختصهم الله تعالى بمزيد فضل وكبير تكريم، بأن وهبهم جل جلاله من صفاته، مع التنويه بأن صفات الخالق غير صفات المخلوقين، فصفات الله ذاتية ثابتة لا يماثلها شيء ولا يطرأ عليها تغيير، وصفات المخلوقين موهوبة طارئة متغيرة يمكن سلبها في أي وقت.

وبنو آدم بما وهبهم الله من صفاته شأنهم في الدنيا خطير، ودورهم في الاستخلاف كبير، وعندما يدركون هذا ويتحققون بمعاني أسماء الله وصفاته فإن الله يمنحهم سلامة الحركة في الحياة، وريادة الأمم، وطيب العيش يوم يلقونه، ويحظون بجواره في مقعد صدق عند مليك مقتدر.

غير أن آثار أسماء الله وصفاته في حياة المسلمين والتحقق والتخلق بها أضحت باهتة وشبه غائبة، الأمر الذي أدى إلى ضعف الأمة الإسلامية وعطل تقدمها، خصوصا عندما اشتغل العقل المسلم بغير ما هو مؤهل له وبما لا يدخل في اختصاصه، واستنزفت طاقات العقول المسلمة قرونا طويلة وما زالت وهي تخوض في خلافيات جزئيات علم الكلام حتى أصبح من أعقد العلوم وأشقها على طلاب العلم، وانقسمت الأمة بين الذين غفلوا عن مقصد علم الكلام، إلى سلف وخلف ومعطلة ومجسمة، وضاع فقه الأولويات في هذا الخضم الهائل والسيل الجارف والكم الكبير من جزئيات الكلام، وما لهذا عرفنا الله بأسمائه وصفاته، والعقل وظيفته الاشتغال والتفكير في المادة، وأما ما وراء المادة فليس له إلى ذلك من سبيل، فالله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، وغاية وجودنا التعبد بأسماء الله وصفاته وتحقيق معانيها في واقعنا لعمارة الأرض. قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٠].

قال الإمام أبو حامد الغزالي رحمه الله: (فأما معرفة الله تعالى وصفاته وأفعاله؛ فلا تحصل من علم الكلام، بل يكاد أن يكون الكلام حجابًا عليه ومانعًا عنه، وإنما الوصول إليه بالمجاهدة التي جعلها الله سبحانه مقدمة للهداية)[2].

(١) بتصرف بسيط من مجموع فتاوى الشيخ ٤/ ٢٢٦

(٢) إحياء علوم الدين (٨٦/١).

ونتج عن كل هذا عقيدة باردة لا تكاد تحرك المشاعر والوجدان، أو تؤثر في نهضة الأمة، يقول الأستاذ الشهيد سيد قطب: (وخطأ أي خطأ ـ بالقياس إلى الإسلام ـ أن تتبلور العقيدة في صورة (نظرية) مجردة للدراسة الذهنية ـ المعرفية الثقافية ـ بل خطر أي خطر كذلك. لو أراد الله لأنزل هذا القرآن جملة واحدة ثم ترك أصحابه يدرسونه ثلاثة عشرة عاما أو أكثر أو أقل حتى يستوعبوا النظرية الإسلامية. ولكن الله ـ سبحانه ـ كان يريد أمرًا آخر، كان يريد منهجًا معينًا متفردًا، كان يريد بناء جماعة وبناء حركة وبناء عقيدة في وقت واحد. كان يريد أن يبني الجماعة والحركة بالعقيدة، وأن يبني العقيدة بالجماعة والحركة، كان يريد أن تكون العقيدة هي واقع الجماعة الحركي الفعلي، وأن يكون واقع الجماعة الحركي الفعلي هو الصورة المجسمة للعقيدة)[١].

ويقول رحمه الله: (والقرآن الكريم لا يدخل في جدل ذهني جاف بصدد قضية الألوهية والربوبية ـ كالذي جدّ فيما بعد بتأثير المنطق اليوناني والفلسفة الإغريقية ـ إنما يلمس المنطق الفطري الواضح البسيط المباشر؛ إن الله هو الذي خلق السماوات والأرض وما فيهن. وجعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل. وقدر اختلاف الليل والنهار.. هذه الظواهر البارزة التي تلمس الحس، وتوقظ القلب لو تفتح وتدبرها تدبر الواعي المدرك. إن الله الذي خلق هذا ودبره هو الذي يليق أن يكون ربا يدين له البشر بالعبودية ولا يشركون به شيئا من خلقه. أليست قضية منطقية حية واقعية لا تحتاج إلى كد ذهن، ولا إلى بحث وراء الأقيسة الجدلية التي يعلكها الذهن باردة جافة، ولا تدفئ القلب مرة ولا تستجيش الوجدان؟!)[٢].

والمطلوب إذن رد الأمر إلى نصابه لتستقيم النفس على العقيدة الصحيحة، وتسير الحياة على الجادة القاصدة، فلا تحيد أو تميل ذات اليمين وذات الشمال.

إن الناظر في القرآن الكريم حينما يمر على أسماء الله وصفاته ويتفكر في معانيها ومراميها وأسرار ورودها في سياق الآيات ليدرك أن الله يريد من وراء ذلك أن يصبغ الإنسان حياته وفق إيحاءات الأسماء الحسنى، ولا يجنح إلى اجتزاء المعاني بل يحيط بها إحاطة شاملة.

ولقد غلب على الخطاب الإسلامي في الأغلب الترهيب والتخويف والتعنيف، وغفل عن الترغيب التشويق والتحبيب، قال النووي: (وَقَدْ تَتَبَّعْت الْأَحَادِيثَ الصَّحِيحَةَ الْوَارِدَةَ فِي الْخَوْفِ وَالرَّجَاءِ وَجَمَعْتُهَا فِي كِتَابِ رِيَاضِ الصَّالِحِينَ، فَوَجَدْت أَحَادِيثَ الرَّجَاءِ أَضْعَافَ الْخَوْفِ مَعَ ظُهُورِ الرَّجَاءِ فِيهَا)[٣].

خذ مثلا اسم الله البصير لا نكاد نجد من يكتب ويتحدث عن ذلك إلا بالترهيب والتخويف بأن الله يبصر أعمال الإنسان السيئة ويحصي عليه أنفاسه الرديئة، ومن ثم فالعقوبة

(١) (معالم في الطريق) ص (٣٧).

(٢) (في ظلال القرآن ج٥ ص ٣٤٤).

(٣) المجموع شرح المهذب (٥/ ١٠٩).

الأليمة تنتظره يوم القيامة إن لم يتب ـ وهذا حق لا ريب فيه ـ لكن لا نجد ـ في الغالب من يتكلم أو يكتب بأن الله يبصر الأعمال الصالحة ويفرح بعبده حين يراه على هذه الحال الحسنة.

وكذلك عندما نخاطب الناس بأن الله سميع يسمع ما يصدر عن العبد من أقوال مخالفة فاحشة فيجب الحذر والخوف من الله ـ وهذا حق لا ريب فيه ـ غير أن التوازن في الخطاب يوجب ذكر الجانب الآخر لاسم الله السميع فالكلم الطيب يسمعه ويرفعه، ويسمع تلاوة عبده لكتابه، ويسمع قول الحق لإصلاح عوج المفسدين، فيثمر مثل هذا الخطاب النهوض في الطاعات، ليرَ الله عبده في أحسن أحواله عاملا للصالحات آمرا بالمعروف قائما يتلو آيات الله متقلبا في الساجدين ـ خاصة في الأسحار ـ يناجي ربه ويدعوه ويستغيث به، فيفرح لأن الله يراه على الحالة التي يحبها الله، ويحدوه علم الله ورؤيته لذلك للمزيد من القيام والسجود، قال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الشعراء: ٢١٧ ـ ٢٢٠]، وكما قال الله تعالى عن داود عليه السلام: ﴿وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [سبأ: ١١]، فتمتلأ نفسه بالسعادة والسرور، ويتحفز للمزيد من العمل مع إحسانه غاية الإحسان وإتقانه، فيلقى الجزاء على ذلك في الدنيا والآخرة.

قال القشيري في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦]: في هذه الآية هيبة وفزع وخوف لقوم، وروح وسكون وأنس قلب لقوم)[١]. فما ظننا بمن هو أقرب إلينا من أنفسنا!!!

والأمثلة على ذلك كثيرة، والقرآن مليء بهذه الكنوز النفيسة، والتأمل في كتاب الله مع التدبر يمنحنا كثيرا من الطاقات المشجعة، أما ذكر الجانب الأحادي ـ أعني التخويف والترهيب ـ فقد يكون له أثر سلبي ويثبط عن العمل ويوقع في اليأس والقنوط، والقرآن الكريم ذكر الترغيب مصاحبا للترهيب، ليقع التوازن في الخطاب القرآني للنفس البشرية، وخطابه بالترغيب أكثر من الترهيب لأن النفس البشرية بفطرتها وطبعها تميل للترغيب وتحب التبشير، وهذا هو هديه ﷺ، روى مسلم عَنْ أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، (أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ بَعَثَهُ وَمُعَاذًا إِلَى الْيَمَنِ فَقَالَ: «يَسِّرَا وَلا تُعَسِّرَا، وَبَشِّرَا وَلا تُنَفِّرَا، وَتَطَاوَعَا وَلا تَخْتَلِفَا»[٢]، وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «يَسِّرُوا وَلاَ تُعَسِّرُوا، وَبَشِّرُوا، وَلاَ تُنَفِّرُوا»[٣].

أثر الأسماء الحسنى في الحياة

القوة الحقيقة الفاعلة في الوجود هي قوة الله تعالى، وكل قوة في الوجود منحة من الله، وعندما يتشبع المؤمنون بهذا الحقيقة ويأخذون بالأسباب المعنوية والمادية، ويستمدون من اسم الله القوي القوة والمدد والمعونة والنصر فإنه لا يستطيع أن يكيدهم أحد، فالمؤمن في أقلّ أحواله يعادل اثنين

(١) تفسير البقاعي (٧/٢٥٥)
(٢) البخاري رقم (٣٠٣٨)
(٣) البخاري رقم (٦٩)

من الكفار وقوته تفوق قوة الأعداء، قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِاْئَتَيْنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًاۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِاْئَتَيْنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [الأنفال: ٦٥ ـ ٦٦].

واسم الله القدير يحدونا ـ وقد وهبنا الله القدرة ـ أن نكون قادرين على استجلاب النصر بتحقيق شروط الاستخلاف، قادرين على الأمر بالمعروف وتغيير المنكر، قال رسول الله ﷺ: «من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان»[١].

وكلما ازداد الإيمان واليقين كلما كنا أقدر على تغيير المنكرات، قال الشيخ عبد القادر الجيلاني: (إذا كنت منكرا على نفسك قدرت على الإنكار على غيرك)[٢].

على قدر قوة إيمانك تزيل المنكرات، وعلى قدر ضعفه تقعد في بيتك وتتخارس عن إزالتها. فأقدام الإيمان هي التي تثبت عند لقاء شياطين الإنس والجن.

ولنأخذ مثلا اسم الله المحي المميت، فقد وهب الله الإنسان القدرة على أن يحي قلبه بنور الإيمان والمعرفة، ويميت نوازع الشر في نفسه ويحي فيها نوازع الخير، وأن يبني حياته كلها على إحياء الحق وإماتة الباطل، فيبذل ما يستطيع من نفسه ووقته وماله وجهده في سبيل إحياء العقيدة والشريعة في نفوس الناس، وإماتة الشرك والباطل والشر بكل سبيل متاح، وأن يحي في القلوب الأمل ويميت اليأس والقنوط، قال عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (إن لله عبادا يميتون الباطل بهجره، ويحيون الحق بذكره)[٣]، وما دام الإنسان حيا فإنه يبقى على العهد مع ربه، قال تعالى: ﴿وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ [مريم: ٣١].

وهكذا اسم الله الوتر ـ كما مر معنا في الحديث ـ وقد خصه النبي ﷺ بالذكر ـ أعني اسم الوتر ـ من بين الأسماء الحسنى لمعاني عظيمة لم أجد من تعرض لها من المتقدمين، فالله وتر يحب الوتر، ولعل من جملة المراد أن الله يحب من عبده أن يكون وترا في بعض الأحايين يخلو بنفسه يتفكر في عظمة الله وآياته في الأنفس والآفاق فيزداد إيمانا وتفيض عيناه من خشية الله، قال نبي الله ﷺ: ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه، والنبي ﷺ قبل البعثة كان يخلو في غار حراء، ومن هنا جاءت سنة الاعتكاف في العشر الأواخر من رمضان، ولعل من ثمار الخلوة أن الشخص عندما يكون وترا يتخلص من ضجيج الحياة ومشاغلها وأعبائها فيفكر في عيوب نفسه فيصلحها، ويتفكر في معضلات الأمة ومشاكلها وكيفية

(١) مسلم رقم (٧٨).

(٢) الفتح الرباني والفيض الرحماني، المجلس السابع.

(٣) حلية الأولياء (٥٥/١).

الخروج من هذه المآزق.

قال ابن حجر عن معنى الوتر: وقيل: (هو منصرف إلى من يعبد الله بالوحدانية والتفرد على سبيل الإخلاص... قال القرطبي: ويظهر لي وجه آخر وهو أن الوتر يراد به التوحيد، فيكون المعنى أن الله في ذاته وكماله وأفعاله واحد ويحب التوحيد، أي أن يوحد ويعتقد انفراده بالألوهية دون خلقه)[1].

وأما اسم الله الحكم، فلا نرتضي أحكام الجاهلية، ونسعى لإحلال أحكام الإسلام مكانها، وهذا يحتاج لمجاهدة ومصابرة ودعوة إلى حكم الله ببيان محاسن أحكام الإسلام ومساوئ حكم الجاهلية، قال تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠].

(ولم أر مثل حكم الله حكما

ولم أرَ مثل بـاب الله بابا)

ونتعلم من اسم الله الحكم أن نحرك عقولنا ونبذل جهدنا فيما يستجد من قضايا لنجد لها الحلول الناجعة لأمراض أمتنا، روى البخاري عَنْ عَمْرِو بْنِ العَاصِ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِذَا حَكَمَ الحَاكِمُ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَصَابَ فَلَهُ أَجْرَانِ، وَإِذَا حَكَمَ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَخْطَأَ فَلَهُ أَجْرٌ». ومرجعيتنا في ذلك كله وحي الله، فالحكم حكمه والقضاء قضاؤه، قال تعالى: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّى عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [الشورى: ١٠]، وقال: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا﴾ [الأنعام: ١١٤]، وقال: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وعندما يكون الحكم لله واقعا محققا في الأرض يسود العدل والسلام والحق ويتساوى الناس في الحقوق والواجبات. وقس على ذلك باقي أسماء الله الحسنى وصفاته العليا.

ونهاية: فأسماء الله الحسنى لم يعلمنا الله إياها ويهبنا من نفحاتها لتكون ترفا عقليا؛ بل لنحقق هذه الأسماء اسمًا اسمًا وصفة صفة في حياتنا، ونستلهم منها مقصود ومراد الله من ذلك. والله من وراء القصد.

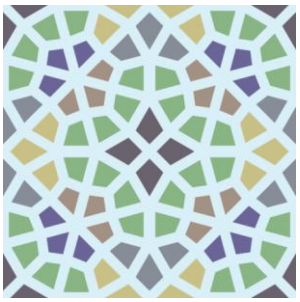

(١) (فتح الباري: ج١١ ص ١٢٤)

الإيمان بالغيب.. كيف يكون؟

محمد علي النجار ـ محرر مجلة مقاربات

في مطلع سورة البقرة يخبرنا ربنا سبحانه أن كتابَه القرآن سِفرٌ كامل الأوصاف جاء هداية للعباد المتقين ، وإذ قد أثنى الله سبحانه على عباده المتقين بجليل من الصفات، فقد ابتدأها بذكر أخص صفاتهم ألا وهي الإيمان بالغيب، في تأكيد واضح على أن القرآن لن يكون هداية للواقفين مع عقلهم المادي فقط، متجاهلين ما انحصر به العقل البشري من إدراك الماديات والاستدلال بالمعقول على ما وراء المادة من غيب، والتأكد من صحة الأخبار وفهمها، وعدم قدرته على التدخل فيما وراء ذلك مما أثبته العقل ولم يحط به.

فالقرآن لن يكون هداية للواقفين مع المادة فقط في إنكار تام لنداء الفطرة داخل الإنسان، وإصرار لا مستند له على أن لا شيء في هذا الوجود فوق عقولهم المحدودة، أو خارج نطاق حواسهم العاجزة.

بعد أن ابتدأ القرآن بوصف المتقين بالإيمان بالغيب أكمل؛ فوصف المتقين بإقام الصلاة وإنفاق المال، فجمع لهم أطراف الدين ومقاصده؛ صحة العقيدة والقيام بحق الله وأداء حقوق الخلق، ثم عاد القرآن إلى الإيمان فثنَّى بذكره ثانية وفيه من الغيب الإيمان بما أُنزل من قبل على رسله وأنبيائه والإيمان باليوم الآخر، ليكون ما ذكر من صلاتهم وزكاتهم محفوفا بالإيمان بالغيب أولا، ثم بما يقتضيه من التصديق بكل ما جاء به الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ثانيا، قال الله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ۝٤ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [البقرة: ١ ـ ٥].

ما الغيب؟

إن العالم بالنسبة إلى الإنسان غيب أو شهادة، فعالم الشهادة كل ما يدركه الإنسان بحواسه الظاهرة أو الباطنة، وعالم الغيب كل ما غاب عن حس الإنسان أو إدراكات عقله البشري مما أخبر عنه الله ورسوله، عَنْ أَبِي الْعَالِيَةِ قال: (يؤمنون بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَنَّتِهِ وَنَارِهِ وَلِقَائِهِ وَيُؤْمِنُونَ بِالْحَيَاةِ بَعْدَ الْمَوْتِ وَبِالْبَعْثِ، فَهَذَا غَيْبٌ كُلُّهُ)، وَقَالَ عَطَاءُ بْنُ أَبِي رَبَاحٍ: (مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ فَقَدْ آمَنَ بِالْغَيْبِ)[1]، ويدخل في الإيمان برسل الله وكتبه كل ما جاءنا عن طريقهم من أحوال البعث والقيامة وغيرها.

(١) : تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم (٣٦/١).

ولكل من عالم الغيب والشهادة وسائله المعرفية الخاصة به، فعالم الشهادة بكل ما فيه وسيلة معرفته الأصيلة الحواس والعقل والفكر، بخلاف عالم الغيب الذي لا وسيلة لمعرفته سوى الوحي، يؤكد الأستاذ محمد المبارك ذلك في حديثه عن الفرق بين عالمي الشهادة والغيب فيقول: (إن الإسلام وضع الإنسان وجها لوجه أمام الكون إذ أزال ما بينهما من حواجز كما أنه أخضعه له، لتفكيره وتجربته وتسخيره وأزال عنه وعن جميع أجزائه صفة التقديس والتأليه التي كان يتصف بها في الديانات الوثنية والعقائد الخرافية، وجعل الحواس بمعونة العقل أو العقل بمعونة الحواس طريقا للوصول إلى معرفته ومصدرا لكشف حقائقه وجعلها المرجع المختص بذلك) ولكن مقابل ذلك أخلى القرآن مسؤولية الإنسان عن عالم الغيب إذ أسند مسؤوليته إلى الوحي، يقول الأستاذ: (بخلاف عالم الغيب فقد جعل الوحي للأنبياء هو مصدر معرفته والمرجع المختص في ذلك)[١].

ولا يدخل في الغيب ما غاب عن حواسنا الخمس وأدركناه بمقدمات ونتائج رياضية مجردة، فإنك لو أعطيت طفلا مسألة حسابية ثم جاءك بحلِّها أو جوابها؛ فإن هذا لا يعني أصلا أنه يعلم الغيب لأن ما وصل إليه مدرك بمجموعة من المقدمات والنتائج العقلية، وكذلك كل ما حكم بمقدمات وأسباب ونتائج فليس بغيب كعلم الأرصاد وتوقع الأمراض والكوارث ونتائج التجارب والعلوم، فإنه ليس بغيب شرعا كما يقول الشيخ الشعراوي رحمه الله، فكل قضايا الكون التي تدرك بالعلم جزء من عالم الشهادة، فهي لا تدخل في الغيب.

ما الإيمان؟

الإيمان أن يصدق الإنسان تصديقا جازما ليس معه شك بالله وصفاته وبكل ما أخبرنا به في كتابه أو بواسطة أنبيائه، مع ما يقتضيه هذا الإيمان، قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: (وَالْأَوْلَى أَنْ يَكُونُوا مَوْصُوفِينَ بِالْإِيمَانِ بِالْغَيْبِ قَوْلًا وعملا واعتقادا)[٢]، وفي الصحيحين أن جبريل عليه السلام سأل النبي ﷺ: «مَا الإِيمَانُ؟» قَالَ: «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلاَئِكَتِهِ وَكِتَابِهِ وَلِقَائِهِ وَرُسُلِهِ وَتُؤْمِنَ بِالْبَعْثِ وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ كُلِّهِ»[٣].

لماذا الإيمان بالغيب؟

إن الإيمان بالغيب هو الحد الفاصل بين الإنسان والحيوان، وبين من عَبَدَ ومن كفر وجحد، فبه يعلن الإنسان التسليم لخالقه ومولاه بالعقل الذي منحه إياه وأمره بأن يقف به حيث أوقفه، ويسلم فيما لم يأذن له به... وقد جاء الإيمان بالغيب ليفرغ الإنسان من الاشتغال بالأسئلة التي تتجاوز قدراته لينشغل بالعمل في هذه الحياة وإعمارها، وملء الوقت بالعمل المفيد المثمر. فالإيمان بالغيب يسَّر على الإنسان حياته واختصر عليه الكثير من الجهد العقلي المضني

(١) الإسلام والفكر العلمي (١١٧)

(٢) تفسير الطبري (٢٣٥/١).

(٣) صحيح البخاري، رقم (٥٠)، وصحيح مسلم، رقم (٥).

الذي قد يصل في حالات كثيرة إلى نتيجة لا تساوي شيئا سوى الضياع الذي وصل إليه كثير من الفلاسفة، الذين حاولوا بعقولهم القاصرة أن يتجاوزوا الوحي والغيب، فقضَوا وهم يتخبطون بين إثبات الألوهية ونفيها، وفي تصديق البعث أو تكذيبه، ولم توصلهم علومهم المتجردة عن اعتبار نهج الله إلى شيء.

إن الإيمان بالغيب يحجز الإنسان عن ارتكاب الكثير من المساوئ لأنه يعلم أن الله مطلع عليه في حركاته وسكناته، وأن بعد كل عمل سؤالا وجوابا ومكافأة وعقابا.

كما أن الإيمان بما أخبرنا الله به يمنح الإنسان شعورا تاما بالطمأنينة ويلهمه الصبر ويحفظه من اليأس بينما يفتقد الملحد كل ذلك.

عقلنة الغيب

إن من أكبر الفتن التي عصفت بالجيل المسلم اليوم محاولة عقلنة الغيب، لجعل كل مسألة منه في موضِع القبول أو الرد العقلي المطلق، خاصة أمور القدر والثواب والعقاب الرباني للمسلم والكافر، لتبدو قريبة إلى الحس كقرب أي مسألة رياضية أو فيزيائية نتوصل بمقدمات بسيطة إلى نتائجها القطعية.

والواقع أن محاولة تكييف الغيب وعقلنته حتى يصبح كالمشاهد قد تخرج بالمؤمن من طور الإيمان الحقيقي بالغيب، لتصل به في مرحلة لاحقة إلى أن تتعارض لديه مبادئ إيمانه العقلي المجرد بمبادئ إيمانه بالغيب، وحينها قد يقع له ما وقع لكثيرين من الشك بالله، أو تحريف كلامه وتحويره عن معناه وسياقه ليتوافق مع عقله القاصر.

وهذا ما قام به فئات من المعتزلة وغيرهم قديما عندما حاولوا الموافقة بين العقل الفلسفي بمطلقه وقواعد الدين كلها فوقعوا فيما وقعوا فيه. فلم ينتظم في فكر المعتزلة أن يعذب الله على العمل وهو قدَّره ولم ينتظم عند الإمام ابن تيمية رحمه الله أن يَخلُد الكفار في نار جهنم فأنكر بقاءها وجزم بخروج أهلها منها واستدل لذلك بما ليس بدليل[1]، ولم ينتظم في عقل البعض اليوم أن

(١) من كلامه رحمه الله في ذلك: (وفي المسند للطبراني: ذكر فيه «أنه ينبت فيها الجرجير»، وحينئذ فيحتج على فنائها بالكتاب والسنة، وأقوال الصحابة، مع أن القائلين ببقائها ليس معهم كتاب، ولا سنة ولا أقوال الصحابة)، انظر رسالته «الرد على من قال بفناء الجنة والنار» (٦٧).
قال الشيخ الألباني في وصفه ما ذهب إليه الإمامان ابن تيمية وابن القيم: (حتى ليبدو للباحث المتجرد المنصف أنهما قد سقطا فيما ينكرانه على أهل البدع والأهواء من الغلو في التأويل والابتعاد بالنصوص عن دلالتها الصريحة وحملها على ما يؤيد ويتفق مع أهوائهم، حتى بلغ الأمر بهما إلى تحكيم العقل فيما لا مجال له فيه كما يفعل). وقد اعتذر لهما فقال: (فكيف ذهب إليه شيخ الإسلام ابن تيمية وانتصر له تلميذه ابن قيم الجوزية؟ فأقول: إن أحسن ما أجد في نفسي من الجواب عنهما إنما هو أنه لما توهما أن بعض الصحابة قد ذهبوا إلى ذلك وهم قدوتنا جميعا ـ لو صح ذلك عنهم رواية ودراية ولم يصح كما سيأتي بيانه عند المؤلف الصنعاني رَحِمَهُ اللَّهُ ـ واقترن مع ذلك غلبة الخوف عليهما من الله ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾، والشفقة على عباده تعالى من عذابه، وغمرهما الشعور بسعة رحمته وشمولها حتى للكفار منهم، وساعدهما على ذلك ظواهر بعض النصوص ومفاهيمها؛

يدخل الله الملاحدة نار جهنم ففسروا الإيمان والكفر بما يتناسب ومنطقهم غير السوي، ووصل الأمر بهم أن يدخلوهم جنة لم يؤمنوا بها أو بخالقها يوما، ونسوا في حمأة العقل المادي قول الله عن هؤلاء المكذبين ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴾ [سورة الفرقان: آية ٢٣]، ولو أنهم آمنوا بالغيب حق الإيمان فتركوا ما لم تدركه عقولهم إلى إيمانهم بعدل الله وحكمته لكان لهم وللناس في ذلك خير وفضل.

هذا وإن محاولة الكشف عن حكمة الله من بعض أحكام شرعه ليست عقلنة للغيب، وإنما محاولة للبحث في حكمة الله وعمل على تثبيت الإيمان في القلوب. كما أن البحث في الحكمة ليس تعليلا للأحكام أيضا؛ بحيث إن انتفت الحكمة انتفى الحكم وإن وجدت وجد! فالقول بأن العلة في تحريم الخمر منع العقل من الضياع تفضي بالبعض إلى اعتقاد أنه حلال إن لم يؤثر على العقل، وتعليل وجوب العدة بإبراء الرحم فقط ـ كما يقول البعض ـ يفضي بهم وفق منطق العقل المجرد إلى نفي العدة عن المرأة التي لا تلد أو الاكتفاء بحيضة واحدة، والحق أن العلة في تحريم الخمر وإيجاب العدة التعبد بأمر الله وإيماننا بالغيب الذي يفضي بنا إلى قبول أحكامه، وما يذكر بعد ذلك هو من قبيل التفتيش عن حِكَم الله في تشريعه لتثبيت الإيمان واستنباط مزيد من الأحكام وفق قواعد القياس لا من باب التعليل لها، لأن العلة فيها هو الإيمان وما يستوجبه من خضوع للإله الحكيم، وتعبد بأوامره.

وهنا أمر لا يمكننا تجاوزه بحال إن لم ننبه عليه؛ إن إيغال بعض الدعاة المعاصرين في تعليل الأحكام وأوامر الله، أو التمحل في إثبات الإعجاز العلمي والمادي في القرآن والسنة؛ مع عدم التركيز على مسألة الإيمان وعلة التعبد في الأحكام أوصل بعض الناس في مرحلة من المراحل إلى شيء من الضياع، أو التخلي عن إيمانهم بعد أن انتهبتهم الشكوك. وإن لهذا الأسلوب العقلي المفرط في شرح الإيمان، أو ترتيب السعادة الدنيوية على الإيمان والطاعة، والشقاء الدنيوي على الكفر والمعصية، أثرا كبيرا في ظهور الجيل الذي أشار إليه القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴾ [سورة الحج: الآية ١١].

كما كان لبعض الحداثيين المتأثرين بالقيم الغربية والمنطقية المادية أكبر الأثر في انتشار الشك بالغيب، إذ حرفوا كلام الله وأدخلوا اليهود والنصارى والملاحدة جنة الله ـ طالما أنهم لم يؤذوا أحدا ـ بزعم أن ما يفهم من خلود الكفار في نار جهنم يتعارض مع مبادئ الرحمة والغفران التي يتمتع بها أصحاب الإنسانية السوية فضلا عن الرب الرحيم، ناسفين بذلك كل ما جاء في القرآن الكريم وسنة نبيه ﷺ من الحديث عن هذه

فأذهلهما ذلك عن تلك الدلالة القاطعة وقالا ما لم يقل أحد قبلهما، وما أرى لهما شبها في هذا إلا ذلك المؤمن الذي أوصى أهله أن يحرقوه بالنار ليضل عن ربه فلا يقدر على تعذيبه. انظر مقدمة «رفع الأستار لإبطال أدلة القائلين بفناء النار»، ص (٢١ ـ ٢٢).

القضية المفصلية في شرع الله، عَنْ جَابِرٍ قَالَ: أَتَى النَّبِيَّ ﷺ رَجُلٌ فَقَالَ: (يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا الْمُوجِبَتَانِ؟) فَقَالَ: «مَنْ مَاتَ لَا يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا دَخَلَ الْجَنَّةَ وَمَنْ مَاتَ يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا دَخَلَ النَّارَ»(١).

وإن هؤلاء الذين يساوون بين المؤمن والكافر وبين من رضي عنه الله وسخط عليه؛ هم أول من أصيب في إيمانه بدَخَنٍ، فلا أدري كيف يهدون غيرهم إذ لم يهتدوا حق الهداية، قال ربنا سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخۡفَوۡنَ عَلَيۡنَآۗ أَفَمَن يُلۡقَىٰ فِي ٱلنَّارِ خَيۡرٌ أَم مَّن يَأۡتِيٓ ءَامِنٗا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡۖ إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ۝٤٠ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكۡرِ لَمَّا جَآءَهُمۡۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٞ ۝٤١ لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ﴾ [فصلت: ٤٠ ـ ٤٢]، ليت شعري إن لم يدخل في هذه الآيات؛ المتشككون بأحكام الله الظاهرة البينة فمن يدخل فيها!؟

مختصر الأمر أن الكِبر والاعتداد بالعقل في مقابل الإيمان بالوحي هو السبب الأساس في الجدال في غيب الله وإنكار قَدَرِه، أو تأويل عدلِه.

لماذا يدخل الشك في إيمان الناس:

إن من أول ما يشك به المؤمنون ـ إيمانا تقليديا ـ في المصائب هو الإيمان، إذ إنهم يعتادون النعمة والرب المنعم، فإن جاءهم الابتلاء لجؤوا إليه بفطرتهم أو بمقتضى ما نشؤوا عليه من إيمان تقليدي؛ فإن تأخرت عنهم الإجابة التي يريدونها وبالشكل الذي طلبوه انقلب دعاؤهم سخطًا وشكًّا، وما أكثر هذا النوع من الشاكين والملحدين في مناطق الحروب والصراعات!

والقسم الثاني من الناس يدخله الشك من مجالسة أهل الشك والاستماع إليهم، فإنه يحصل له بمجالستهم من الوساوس والشكوك مثل ما عندهم ولهذا أمرنا ربنا بالبعد عن الخائضين في آياته فقال: ﴿وَإِذَا رَأَيۡتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيۡرِهِۦۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَلَا تَقۡعُدۡ بَعۡدَ ٱلذِّكۡرَىٰ مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنعام: ٦٨]، وفي مقابل ذلك أمرنا بصحبة الصادقين ومجالستهم فقال لنا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩].

كما أن للمعاصي وما تحمله من ظلمات دورا كبيرا في إيقاع الناس في الشكوك، وإخراج الإيمان من دائرة اليقين القلبي ليعود إلى مرحلة الشك والأخذ والرد.

مراتب الناس في التعامل مع الغيب:

إن الناس في نظرتهم إلى الغيب أصناف ثلاثة:

الأول: صنف لا يقبله لأنه لا يدركه بحواسه وقدراته العقلية وعليه الملاحدة وكثير من الفلاسفة.

الثاني: صنف موغل في الغيب لا ينفك في حكمه على الحياة عنه، إن رأى اختلاف أحوال الدنيا وتقلبها وتنوع أحوال الخلق نسب كل ذلك إلى الغيب الذي لا يمكن تغييره، وتقاعس عن

(١) صحيح مسلم، رقم (١٥١).

العمل والسعي في الأسباب لأن الأمور حسب اعتقاده مقدرة لا تحتاج إلى عمل، في فهم مقلوب لقضايا الغيب والقضاء والقدر التي جاء بها الإسلام، يقول الأستاذ محمد المبارك متحدثا عن انقلاب المفاهيم العقدية عند جمع من المسلمين: (لقد كانت عقيدة القضاء والقدر فلسفة إقدام في الحياة «اعملوا فكل ميسر لما خلق له»، فليس إقدامك على الجهاد ولا دخولك المعركة بقاتل لك إذا لم يأت أجلك. فلا تخف لو اجتمع الخلق كلهم على أن يضروك فلن يصيبك ضرر إذا لم يرد الله ذلك. فإذا بهذه العقيدة نفسها تصبح فلسفة تواكل وإحجام: لا تعمل فرزقك يأتيك، ولا تجاهد لأن الله ينصرك إذا أراد من غير جهاد ولا حرب)[1].

الثالث: وأما الصنف الثالث فهو صنف من الخلق آمن بالغيب والقضاء والقدر وبكل ما أخبر عنه ربنا سبحانه، وقد كان إيمانه بغيب الله وقدره دافعا له للعمل بما أمره الله به، والأخذ بأسباب السعادة الدينية والدنيوية والبعد عن مواطن الشقاء، فتفكر في خلق الله وآمن بخالقه، وآمن بمقادير الله وأخذ بأسباب التقدم والرقي الحضاري، وتعلم العلوم وقوانين الفيزياء والكيمياء وطبائع المخلوقات وعلم أن ذلك تقدير العزيز العليم. وهذا الصنف من الناس هو الذي قصد الإسلام إلى تربيته، واعتنى الشرع بتنشئته، جيل يفهم عن الله، ولا يهمل دنياه أو أخراه.

(١) الفكر الإسلامي الحديث في مواجهة الأفكار الغربية (٣٧ و٣٨).

لا ملجأ لنا إلا الإيمان بالغيب:

إن الإيمان بالغيب لا يعني أبدا أن الإسلام دين خرافة! إن الإسلام متوافق تماما مع الفطرة السوية والمنطق السليم، بل إن القرآن الكريم هو الذي علم البشرية الفصل بين قوانين عالم الشهادة وقضايا عالم الغيب، فلم يفسر ظاهرة طبيعية ذكرها تفسيرا غيبيا أو خرافيا كما كان يعتقد وثنيو العالم القديم أو فلاسفة اليونان، من أثر لحرب الآلهة على الكون وحياة البشر، أو تأثير لذهاب الطير يمينا أو شمالا في نجاح المقصد أو فشله، أو أن للكواكب قدرة على تغيير قدر الناس، وللجن وعالم الأرواح مثل ذلك الأثر في حياة البشر، بل ويعتقدون في بعض ملوكهم أنهم من نسل الآلهة المقدسة التي تزوجت ببعض البشر حلالا أو حراما فكان لها فيهم نسل وذرية.

لقد رفض القرآن كل تلك الخرافات ورفض نسبة ظواهر عالم الشهادة إلى أسباب غيبية، وفسر قضايا الكون ومظاهر الطبيعة وسنن الحياة تفسيرا طبيعيا تدركه الحواس والعقول والأفكار، ثم نسب كل ذلك إلى قدرة الله الخالق الذي خلق فأبدع، وقدَّر فأحكمَ، واختص بعلم الغيب فلا يُطلع عليه إلا من ارتضى، ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ۝ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ﴾ [الجن: ٢٦ ـ ٢٧].

إن الإسلام دين الفطرة والعقل، والإيمان بعالمي الشهادة والغيب والإله الخالق لهما والقادر عليهما جزء من الفطرة السليمة والعقل السوي،

والإنسان الحق من يستمع قول الحق وهو يناديه: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الروم: ٣٠].

أما ما نراه اليوم من الشبهات فمرده فساد الفطرة وتقلب الأوضاع، التي لا تخرج الإنسان من شك حتى توقعه في آخر، ولا يعصمه من هذا إلا إيمانه بالله وبغيبه الذي يستطيع الإنسان أن يستدل عليه بعقله، ولكنه لا يتمكن من الإحاطة به، وإن المؤمن إذا أدام تقوية إيمانه بالتفكر والعبادة وصحبة الصادقين مَنَّ الله عليه برتبة اليقين، وهي الحالة التي لا يكون معها إيمان العبد قابلا للأخذ والرد، فيفتح الله على بصيرته حتى تغدو أمور الغيب عنده أقرب إلى العيان ببصيرة القلب لا بمنطق الفكر، قال ربنا سبحانه: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴾ [الأنعام: ٧٥].

هيئة التحرير
رئيس التحرير: الدكتور عبد العزيز محمد الخلف
مدير التحرير: الأستاذ الدكتور حسن أحمد الخطاف
مستشار علمي: الدكتور حسين عبد الهادي آل بكر
مستشار علمي: الدكتور محمد أيمن الجمال
المحرر: الأستاذ محمد علي النجار

مقاربات
تصدر عن
المجلس الإسلامي السوري

المقالات الواردة في المجلة تعبر عن رأي كاتبها ولا تعبر بالضرورة عن رأي المجلة
البريد الإلكتروني للمجلة: jou@sy-sic.com

لمحـــة عـــن

المجلس الإسلامي السوري

مع بداية الثورة السورية المباركة تشكلت في الداخل السوري الهيئات والروابط الشرعية لتسد الفراغ الحاصل من غياب مؤسسات الدولة وانحسارها في المناطق المحررة، على صعيدٍ آخر شهد عام 2011 مبادرات لإيجاد كيان جامع موحد من قبل العلماء والروابط التي أجبرها النظام على الاغتراب.. وعلى خطى التوحيد اجتمع نحو ٤٠ رابطة وهيئة شرعية في منتصف نيسان 2014 ليعلنوا تأسيس «المجلس الإسلامي السوري»، الذي ضم العلماء والهيئات الشرعية والروابط العلمية السورية، ليكون قرارًا مشتركًا يعبر عن إرادة موحدة لرموز المدارس الفكرية الإسلامية المعتدلة في سوريا.

الهوية

هيئة مرجعية شرعية وسطية سورية، تسعى إلى جمع كلمة العلماء والدعاة وممثلي الكيانات الشرعية، وتوجيه الشعب السوري، وإيجاد الحلول الشرعية لمشكلاته وقضاياه، والحفاظ على هويته ومسار ثورته.

الرسالة

ترسيخ المشروع الإسلامي وتفعيل دور المؤسسة الدينية في المجتمع السوري.

الرؤية

تمكين المرجعية الإسلامية للشعب السوري من الاضطلاع بدورها الريادي في المجتمع.